

الفصل الأول

نشأة فن الإلقاء ومفهومه وعناصره

الفصل الأول

نشأة الإلقاء ومفهومه

الإلقاء عند العرب:

في أواسط القرن الأول الهجري وضع العرب قواعد النطق التي تناولوا فيها الحروف الأبجدية فحددوا مخارجها من الجوف والحلق واللسان والشفيتين والخيشوم... وسردوا صفاتها وما يعتريها من مظاهر النطق في أحوالها المختلفة.

والواقع أن العرب المسلمين اتجهوا إلى التفكير في النطق بعد أن جاءهم رسول من الله بكتاب مقدس في لفظه إلى جانب قدسيته في معانيه. وأن قواعد النطق ابتكرها العرب من أجل القرآن بالذات... ثم أخذتها عنهم شعوب الأرض من بعد كانت صمام الأمان من انحراف الألسنة^(١).

والمجتمع العربي يهتم بصناعة الكلام والجدال، وحياة العرب منذ الجاهلية الجدل والإلحاح في الخصومة حيث يتفاخرون بالأنساب وبمفاخر البأس والكرم.. إلخ وهنالك مواقف في خطبهم وإنشاد شعرهم في محافلهم التي خصصوها لذلك مثل سوق عكاظ... إلخ.

والتذوق الفني عند العرب كان معنياً بإلقاء الكلام أكثر من بلاغة الكلام نفسه، وذلك لأن الكلام عندهم كان مسموعاً أكثر منه مقروءاً. وكان الاعتماد على الحفظ أكبر من الاعتماد على التدوين لأنه شعب أُمي.

وحيث انتشر الإسلام خارج الجزيرة العربية ودخل الأعاجم في دين الله وأخذوا يتعلمون العربية نجد أن اللغة العربية أصابها تغييرات في نطق الكلمات هددت بمسح صورة وقعها وجرسها وطبيعتها تكوينها، لأن غير العرب كانوا يستبدلون بأصوات عربية أخرى أصواتاً أسهل عليهم في النطق.

١- فن الإلقاء / عبد الوارث عسر - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م، ط (٢) ص ١١ ..

واصطدمت اللغة العربية مع لغات كثيرة مثل الفارسية واليونانية والقبطية في مصر وغيرها، ولذلك أخذت تظهر اللغة العربية المولدة على ألسنة الأعاجم بخصائصها التي تغاير العربية، حيث ظهرت اللكنة واللثغة والعجمة والإغلاق وعدم الإبانة على ألسنتهم.

لم يقف القدماء صامتين، أمام هذه الظاهرة وكانوا أشد حرصاً على تنقية اللغة. ويقول الفتح بن جني في مقدمة كتابه سر صناعة الإعراب: «أن أضع كتاباً يشتمل على جميع أحكام حروف المعجم وأحوال كل حرف منها، وكيفية مواقعه في كلام العربية وأذكر أحوال هذه الحروف في مخارجها وانقسام أصنافها وأحكام مجهورها ومهموسها وشديدها ورخومها وصحيحها ومعتلها»^(١).

وفي السيرة النبوية أن الرسول صلوات الله عليه حين كان لا يزال بمكة دخل المسجد الحرام وهو ممتلئ بالناس من قريش جالسين في حلقات تضم كل حلقة طائفة من قبيلة.. فتوسط هذه الحلقات وجلس في بضعة من أصحابه ثم أخذ يقرأ سورة النجم.. وأخذت هذه الطوائف التي مازالت على جاهليتها تنصت إليه مأخوذة معجبة حتى انتهى في السورة إلى السجدة التي في آخرها، فسجد صلى الله عليه وسلم وسجد أصحابه ولم يتمالك الكثيرون من الكافرين أنفسهم فسجدوا وهم لا يشعرون حتى انتبهوا إلى أنفسهم فتراجعوا إلى عنادهم وهم يصخبون ويتهمون الرسول بالسحر، و الحقيقة أنه سحر بلاغة الكلمة والرسول صلى الله عليه وسلم كان حسن الصوت في حديثه كله. وأنه كان يعلم ويوضح ويساعد المعنى والإلقاء ببعض الإشارات التي تزيده بياناً.

والقصص والأحاديث في الأدب العربي كانت لوناً جديداً في الإلقاء... فالمحدث الخبير يعرف كيف يستعمل صوته في التأثير على السامعين يقول الجاحظ رحمه الله:

١- فن الإلقاء / أ.د. طه عبد الفتاح مقلد - الفيصلية - ص (٨ - ٩).

«ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني.. ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين.. وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»^(١). ويقول: «لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً سوقياً وأن لا يكون غريباً وحشياً. فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقى رطانة السوقى»^(٢).

ففن الإلقاء هو إيضاح المعاني بالنطق والصوت لكي تتوثق حلقة الاتصال بين المتكلم والمخاطب حتى تأتي الصورة السمعية دقيقة في تفاصيلها.

وعناصر الإلقاء هي:

١- عنصر الاتصال:

الإلقاء يقوم بإيصال الكلام إلى المستمع وبدون ذلك لا يعتبر الإلقاء إلقاءً، لأن الكلام إن لم يصل إلى المستمع بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فقد فقد أهم شرط وهو التلقي.

٢- عنصر الوضوح:

الإلقاء يقوم على إيضاح المخارج للحروف والكلمة والجملة، لأن عدم الوضوح لاختلاف اللهجة أو اللغة أو العيب في النطق أو العجمة قد يؤدي إلى اللبس والغموض.

١- فن الإلقاء - عبد الوارث عسر - ص (٢٠ - ٢٥).

٢- المرجع السابق ص (٢٩).

٣- عنصر المعاني والبيان:

يمكن المستمع من بيان حقيقة ما يلقي إليه دون إبهام في المعنى^(١) بأن يأتي المتحدث بالنعمة الصوتية التي تناسب المعنى حتى يبدو واضحاً بئناً له وقعه المناسب على آذان السامعين له أو المتلقين له.

ولكي تتوفر هذه العناصر لأبد من وجود أصول فن الإلقاء وهي:

- الموهبة:

يحتاج إلى أن يكون الإنسان ذا فطرة سليمة وسليقة تعينه على النطق السليم خالياً من العيوب الكلامية من لثغة وتأتأة وفأفأة، طلق اللسان يجيد إخراج الحروف من مخارجها، قادراً على التحكم في نبرات صوته لا تعيبه لكنة ولا تحوله حبسة دون أن يبيّن، والموهبة تعد الأساس والمنطق الذي يبنى عليه فن الإلقاء.

الاستعداد الشخصي:

فالإنسان الموهوب لأبد أن يكون عنده استعداد كامل ورغبة في معرفة هذا الفن وممارسته وأن يتمرن عليه لكي ينمي مواهبه التي فُطر عليها والتدريب يبعد الرهبة من السامعين ويمنح الثقة بالنفس والشجاعة.

١- فن الإلقاء / أ.د. طه عبد الفتاح مقلد ص (١٨ - ١٩).

الخطابة

أولاً: تعريفها في اللغة:

الخطبة: هي بضم الخاء، وهي ما يُقال على المنبر يقال: خُطِبَ على المنبر خطبة - بضم الخاء - وخطابه، وأما خطبته - بكسر الخاء - فهي طلب نكاح المرأة قال في تهذيب اللغة: والخطبة مصدر الخطيب، وهو يخطب المرأة ويخطبها خطبة وخطيبى قلت: والذي قال أن الخطبة اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب، فيوضع موضع المصدر، والعرب تقول: فلانٌ خطبُ فلانة، إذا كان يخطبها^(١).

وفي المصباح المنير: خَاطَبَهُ مُخَاطَبَةً وخطاباً وهو الكلام بين متكلم وسامع، ومنه اشتقاق الخطبة - بضم الخاء^(٢).

ثانياً: تعريفها في الاصطلاح:

أنها فن من فنون الكلام يقصد به التأثير في الجمهور عن طريق السمع والبصر معاً^(٣).

١ - تهذيب اللغة / أبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى تحقيق الأستاذ: عبد العظيم محمود، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مادة (خطب) ٧ / ٢٤٦.

٢ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن على الفيومي، المكتبة العلمية بيروت/مادة خطب / ١٧٣.

٣ - الخطابة في الإسلام وإعداد الخطيب الداعية/د. مصلح بيومي ط (٢) ١٤٠٨/مكتبة المجد العربي بالقاهرة ص ر (١١).

والخطابة هي الحديث المنطوق وهو فن قديم متجدد، والخطابة كالشعر لحمتها الخيال وسداها البلاغة، وهي مظهر من مظاهر الفروسية والحرية/ووسيلة من وسائل الإقناع، تحتاج إلى نصاعة البيان وطلاقة البديهة. والعرب لهم القُدْحُ المَعْلَى، فقد كانوا يدرّبون فتيانهم عليه منذ الصغر ويحرصون على أن يكون لكل قبيلة خطيب يشد أزرها.

أما أسلوبها فكان رائع اللفظ واضح المنهج، قصير السجع. ومن عاداتهم فيها الوقوف على نشز من الأرض أو القيام على ظهر دابة، ورفع اليد ووضعها، والاستعانة على العبارة بالإشارة، والاعتماد على الرماح أو الإشارة بها^(١). والخطابة تُحسن بسلاسة الكلام وسهولته ونصاعته وتخير ألفاظه وإصابة معناه، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه.

إذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة/والسهولة والرصانة واشتمل على الرونق والطلاوة، وورد الفهم الثاقب فقبله ولم يرد. قال أبو داوود: رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحها رواية الكلام، وبهاؤها تخير الألفاظ.

وأنشد:

يَرْمُونُ بِالْخُطْبِ الطَّوَالَ وَتَارَةً وَحَى الْمَلَا حِظْ خَشْيَةَ الرُّقْبَاءِ^(٢)

والخطب تشبه الرسائل في أنها كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب،

١- تاريخ الأدب العربي - أحمد حسن الزيات، دار المعرفة بيروت ط (٨)، ٢٠٠٤م ص (١٢).

٢- كتاب الصناعتين/أبي هلال الحسن بن عبيد الله بن سهل العسكري المكتبة العصرية بيروت/١٤٢٥، ص ٥٨.

مثل فواصل الرسائل؛ ولكن ليس هنالك فرق بينهما إلا أن الخطبة يُشافه بها، والرسالة يُكتب بها؛ والرسالة تُجعل خطبة، والخطبة تُجعل رسالة، ومما يُعرف من الخطابة والكتابة أنها مختصتان بأمر الدين والسلطان^(١). فأول ما ينبغي أن نستعمله في الخطب مخاطبة كل فريق منهم على مقدار طبقتهم وقوتهم في المنطق.

صفات الخطيب:

على الخطيب أن يتميز بصفات معينة من أجل التأثير في النفوس وامتلاك للقلوب وهي: سداد الرأي/صدق اللهجة وحسن السيرة، والتودد إلى الناس، ورباطة الجاش، وسرعة البديهة والخاطرة وطلاقة اللسان، والمهارة في إثارة العواطف وتحريك أهواء النفوس، وسعة الاطلاع والتجمل في ملابسه وهيئته^(٢). وعيوب الخطيب هي الغموض والتكلف، التلعثم والعى... الخ.

وسائل التأثير في الخطبة:

الكلمة المقنعة، الصوت المؤثر بارتفاع الصوت وانخفاضه، ونغماته ما بين الشعور بالحزن والفرح، والجد والهزل، واستخدام اللفظة من التكرار والتأكيد والوصف والوقف المفاجئ والاستفهام والتساؤل. وكذلك التضمين والاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي والشعر والمثل والحكمة يقوي المعاني.

وهنالك بعض الخصائص التي يوفرها التعبير الصوتي، والتكرار والتوسل بالإيقاع وأسلوب التدرج وتخير اللفظ والاتكاء على الفنون البلاغية، إلى جانب

١- المرجع نفسه ص ١٣٦.

٢- فن الخطابة وإعداد الخطيب، على محفوظ - دار الاعتصام - القاهرة ص ٤١.

حسن الأداء والتعبير وما يصاحب ذلك من حركات وإشارات ونبرات كل ذلك يعطي الخطبة الصورة الواضحة مبنى ومعنى^(١).

عناصر الخطابة:

للخطابة ثلاث عناصر معنوية وهي المقدمة والعرض والخاتمة.

أولاً المقدمة:

للاتصال بالسامعين، وإعداد نفوسهم للموضوع وبخاصة إذا كان جديداً أو كانوا متأثرين بشعور مُضاد. ولا بد أن تكون موجزة جذابة متصلة بالموضوع مثل: خطبة على بن أبي طالب لما بلغه أن خيلاً لمعاوية وردت الأنبار وقتلوا عاملاً له قال: «أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة».

ثانياً العرض:

هو العنصر الأساسي في الخطابة، يذكر فيه الخطيب آراءه مقسمة منسقة مؤيدة بالبراهين، ويرد على خصمه مفنناً آراءه معتمداً دائماً على حجج منطقية حاسمة مع مراعاة اللياقة والإقناع والتأثير.

ثالثاً الخاتمة:

وهي تلخيص للموضوع/ حيث تكون موجزة قوية جامعة لأهم عناصر الموضوع.

أسلوب الخطابة:

أما أسلوب الخطابة فيرمي إلى الإقناع والتأثير، ولذلك لا بد من البراهين العقلية والانفعالات الوجدانية.

٢- فن الخطابة وإعداد الخطيب / على محفوظ- ص ٤١.

تسمى الخطابة الفن العملي لجمعه - فن الإلقاء - بين شخصيتي الخطيب الحسية والمعنوية، ولاستخدامه جميع مواهب السامعين؛ فإن الخطيب يستخدم جسمه في الخطابة؛ فيشير بيديه، ويحرك رأسه، ويشكل أسارير وجهه. وكل هذه الحركات عنصر هام في التأثير الخطابي، حتى إذا قرئت الخطابة مكتوبة كانت فاقدة هذا العنصر الجسماني.

يتميز أسلوب الفن الخطابي بالآتي:

- ١- الصفة العامة وهي القوة، ومصدرها الأول انفعال الخطيب، وقوة عقيدته وبقينه، بما يقول وأن تكون كلماته مؤثرة وجزلة لتكون موسيقى قوية.
- ٢- التكرار المعنوي جائز في الخطابة لتثبيت الأفكار في الأذهان، وتمكين السامعين من الفهم، والقوة والتأثير، ولكن لا بد من تغيير العبارات.
- ٣- يختلف الأسلوب فيكون خبراً، وأمرأ، ونهياً واستفهاماً وتفجعاً، ليمثل الانفعالات اللازمة للخطابة، والتي تمتلئ بها نفس الخطيب.
- ٤- الخطابة فيها التقرير لبيان الرأي ودعمه بالبرهان وفيها القصص والوصف يستعين بهما الخطيب في الإقناع.
- ٥- يجب أن تكون العبارة سهلة خالية من التعقيد حتى يستطيع الجمهور متابعته.
- ٦- يستطيع الكاتب أن يبين بالترقيم، كل قسم وموقف لكن الخطيب يستبدل بذلك النبر الصوتي على النقاط الهامة، والاهتمام بالانتقال من نقطة إلى أخرى بالتبويه، وتغيير الأسلوب ولهجة الخطاب، كل ذلك في جمل قصيرة سهلة، خالية من الاعتراضات.

٧- السامعون هم القياس لمستوى اللغة ودرجتها فقد يكونون من الخاصة وبذلك يكون الأسلوب عالياً وإذا كانوا من العامة كان الأسلوب بسيطاً سهلاً.

٨- لابد أن يكون الخطيب جهير الصوت، حسن الإلقاء، مناسب الهيئة، حسن الوقوف؛ متزن الحركات، خبيراً بنفسية السامعين قادراً على الاندماج فيهم، وفهم ما يطرأ عليهم أثناء الخطابة من فتور فيعالجه^(١).

١- الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية تأليف أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط (١٣) ٢٠٠٦، ص (١٦٦).

أنواع الخطابة:

١- الخطابة السياسية:

الخطابة السياسية مرتبطة ارتباطاً كاملاً باستقرار الدولة وعدم استقرارها، حيث تدور على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة. إيما اتجاه وليت وجهك في السلم أو الحرب وجدت الخطباء يخطبون في الناس محاولين أن يستميلوهم إلى آرائهم داحضين بآراء خصومهم.

وتنشأ الأحزاب السياسية كبيرة كانت أم صغيرة ولكل حزب خطباء ينبرون للترويج للحزب.

ومن خطباء الخوارج قطري بن الفجاءة قائدهم بعد الزبير بن علي يقول فيها: «أما بعد فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة، حُفَّت بالشهوات ... مع أن امرأ لم يكن منها في حيرة إلا أعقبته بعدها عبرة ولم يلق من سرائها بطناً، إلا منحته من سرائها ظهراً، ولم تطلَّه غيبة رخاء. إلا هطلت عليه مُزنة بلاء، وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له خاذلة متكرة،^١ وأن جانب منها اعذوب واحلولى امرئ عليه منها جانب وأوبى، وإن آتت امرأ من غضارتها ورفاهتها نعماً أرهقته من نوائبها نقماً، ولم يمس امرؤ منها في جناح أمنٍ إلا أصبح منها على قوادم خوف، غرارة غرور ما فيها، فانية، فإن من عليها، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى»^(١).

وتمضي الخطبة في طريق الوعظ والترغيب والترهيب، ونرى ما فيها من جمال اللفظ، واختار قطري السجع حتى يؤثر في نفوس سامعيه، وأضاف إليه التصوير، والطباق.

١- تاريخ الأدب العربي، د. شوقي ضيف ط (٢)، دار المعارض، الكتاب الثاني عصر بني أمية، ص ٤١٩.

٢- الخطابة الحفلية:

العرب عرفوا هذا النوع من الخطابة إذا كان يفدون على ملوكهم وأمرائهم، فيخطبون بين أيديهم مُثْنين عليهم ومفتخرين بقبائلهم.

ونرى عبد العزيز بن زُرارة الكلابي، الذي خاطب معاوية بقوله: «يا أمير المؤمنين لم أزل أستدلّ بالمعروف عليك، وأمتطى النهار إليك، فإذا ألوى^(١) بي الليل فقُبْضُ البصر وعُضُّ الأثر أقام بدني وسافر أملِي، والنفس تلوم والاجتهاد يَغْذُر، وإذ قد بلغتك فقطني^(٢)».

وأيضاً من الخطب الحفلية الجمع بين التهنة بالخلافة والتعزية وأول من بدأ ذلك عبد الله بن همام السلولي الكوفي فقد دخل على يزيد بن معاوية حيث استخلف فقال: «يا أمير المؤمنين أجرك الله على الرزية، وبارك لك في العطية وأعانك على الرعية، فلقد رُزئت عظيماً وأعطيت جسيماً، فاشكر الله على ما أعطيت، واصبر له على ما رُزيت، فقد فقدت خليفة الله، ومُنحت خلافة الله، ففارقت جليلاً، ووُهب جزيلاً».

٣- الخطابة القضائية:

الخطابة القضائية: هي أقل أنواع الخطابة حاجة إلى وسائل الصنعة الخطابية، ولذا كان أسلوبها أقرب إلى الأسلوب الكتابي، بخاصة إذا كانت موجهة إلى قاض واحد.

وإنما يحتاج إلى الصنعة الخطابية في الخطابة المتوجه بها إلى الجماهير لذلك يتطلب إجادة الإلقاء وجهارة الصوت^(٣).

١- ألوى: استأثر - قطني: يكفيني.

٢- المرجع نفسه ص ٤٣٠.

٣- النقد الأدبي الحديث ص (١٣٠).

تطور الخطابة:

ازدهرت الخطابة في الجاهلية فقد استخدموها في مناظراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب، وكذلك في الحز على القتال. وظهر الإسلام كان بداية لتطور واسع في الخطابة إذا اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة للدعوة إلى الدين طوال مقامه بمكة قبل الهجرة، يعرض على قومه من القرشيين آيات القرآن الكريم محاولاً أن يوقظ ضمائرهم بما يصور لهم من قوة الله مدبر الكون.

وهاجر الرسول إلى المدينة وازدهرت خطابته حيث أخذ يوضح للمسلمين الآداب الرفيعة، والسلوك السامي، أي أن خطابة الرسول صارت متممة للذكر الحكيم. ومن ثم كانت فرضاً مكتوباً في صلاة الجمع والأعياد، ومواسم الحج، فقد كانت الخطبة تسبق الصلاة في الجمع، والصلاة تسبقها في الأعياد. وتبدأ الخطبة الأولى في الجمع بحمد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله، وكان الرسول في فاتحة هذه الخطبة يقول: «الحمد لله نحمده ونستعينه ونؤمن به ونتوكل عليه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، ومن يهده الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له». ويتلو الخطيب في الخطبة الأولى لصلاة الجمعة بعض آي القرآن الكريم حتى يستلهمها في موعظته، ثم يقوم للخطبة الثانية ويكثر فيها من الدعاء. ويقال إنه كان آخر دعاء أبي بكر في الخطبة الثانية: «الله اجعل خير زمانى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم لقاءك». ولا تُفتح خطبتا العيدين بالحمد لله إنما تفتح بالتكبير فيكبر الخطيب في أولاهما سبع تكبيرات وفي ثانيهما خمس تكبيرات^(١).

١- عصر صدر الإسلام - شوقي ضيف - ط (١٣) دار المعارف من (١٠٩).

ومن أروع ما يصور من الخطب خطبته عليه السلام في حجة الوداع.

خطبة في حجة الوداع:

«الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهّد الله فلا مضلّ له، ومن يضلّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. أوصيكم - عباد الله - بتقوى الله، وأحثّكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد أيها الناس! اسمعوا من أبيّن لكم، فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفٍ هذا. أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلا أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع^(١)، وأن أول رباً أبدأه ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب: وإن مآثر الجاهلية موضوعة، غير السّدانة^(٢) والسّقاية^(٣). والعمد قود^(٤)، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس! إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يُطاع فما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس! (إنما النّسيء^(٥) زيادة في

١- موضوع: ساقط ومحرم.

٢- السّدانة: خدمة الكعبة.

٣- السّقاية: سقاية الحجّاج.

٤- العمد: القتل المتعمد. القود: قتل القاتل بمن قتل.

٥- النسيء: شهر المحرم كانوا يحرمونه عاماً، ويحلّون عاماً، إن أرادوا الإغارة فيقولون أنه بعد شهر صفر ويؤجلوه.

الكفر يُضِلُّ به اللذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلّوا ما حرم الله). إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرام): ثلاثة متواليات وواحد فرد. ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت اللهم أشهد. أيها الناس! إن لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حق، لكم عليهن أن لا يُوطئن فرشكم غيركم، ولا يُدْخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بآئكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن^(١) وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح^(٢). فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما النساء عندكم عوان^(٣)، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد: أيها الناس! إنما المؤمنون أخوة، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد. فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد. أيها الناس! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب أكرمكم عند الله اتقاكم. إن الله عليم خبير. ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد. قالوا: نعم قال فليبلغ الشاهد الغائب. أيها الناس! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز وصية لوارث في

١- تعضلوهن: تضيقوا عليهن.

٢- الضرب غير المبرح: الضرب الخفيف.

٣- عوان: جمع عانية وهي الأسيرة، أي هن عندكم بمنزلة الأثيرات.

أكبر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجر^(١) من أدعى إلى غير أبيه أو تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صَرْفٌ^(٢) ولا عدلٌ^(٣). والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»^(٤).

هذه الخطبة تصور حسن منطق الرسول صلى الله عليه وسلم في خطابته وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب، ووضح في الخطبة أوامر الإسلام ونواهيها وحذر من الشيطان وغواياته، محرماً التلاعب بالأشهر الحرم، ورفع من شأن المرأة ومعاني علاقتها بزوجها فجعل لها حقوقها وعليها واجبات^(٥).

ونموذج للخطابة في عهد أبو بكر الصديق حيث تمت البيعة له، فخطب الناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه وقال: «أيها الناس! إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتُموني على حق فأعينوني، وإن رأيتُموني على باطل فسدّدوني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم. فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم. ألا أن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه أقول قولِي هذا وأستغفر الله لي ولكم»^(٦).

نموذج لخطابة عمر رضي الله عنه يقول: «أين الطّراء»^(٧) المهاجرون عن موعود الله؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أيورثكموها، فإنه قال

١- للفراش: أي لصاحبه. وللعاهر الحجر: أي أن هذا مقضى به رغم أنفها أو لعله يشير إلى رجمها.

٢- صرف: توبة.

٣- العدل: الفدية.

٤- الأدب في صدر الإسلام، د. شوقي ضيف، ط (١٢) دار المعارف (١١٧ - ١١٩).

٥- عصر صدر الإسلام، شوقي ضيف ص (١١٧ - ١٢٢).

٦- المرجع السابق ص (١٢٣).

٧- الطّراء: الذين خرجوا من ديارهم.

(ليُظهر على الدين كله) والله مظهر دينه، ومعز ناصره ومُولي أهله موارث الأمم، أين عباد الله الصالحون؟».

وتوفي عمر فخلفه عثمان، وكان أقل درجة عن عمر وعن أبي بكر في الفصاحة والبيان، ويروى أنه أرتج عليه يوماً وقد أراد الخطابة في الناس فقال: «إن أبا بكر وعمر كانا يُعدان لهذا المقام مقالاً، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب» ولكنه كان يخطب أحياناً، فيملاً النفس بمواعظه.

وولي علي الخلافة وكان خطيباً لا يُشق غباره ومن خطبه وقد تقاعس بعض جنده وأخذت جنود معاوية تغير على أطراف العراق: «إن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء، ولزمه الصغار، وسيم الخسف، ومنع التَّصف؛ ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً وقلت لكم: أغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزى قوم قط في عُمر دارهم إلا ذلوا فتواكلتم وتخاذلتم، وثقل عليكم قولي، واتخذتموه وراءكم ظهيراً حتى شئت عليكم الغارات... فيا عجباً من جد هؤلاء القوم في باطلهم وفشلهم عن حقكم.. حتى صرتم هدفاً يُرمى وفيئاً يُنتهب، يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزون ولا تعزُونَ.. قد وريتم صدري غيظاً، وجرعتموني الموت أنفاساً، وأفسدتم علي رأي بالعصيان والخذلان.

خطبة لأعرابي بالبادية:

قال الأصمعي فيما بلغني: خَطَبَنَا أعرابي بالبادية، فحمد الله واستغفره، ووَحَدَهُ وصلى على نبيه، فَبَلَغَ في إيجاز. ثم قال: أيها الناس، إن الدنيا دارُ بَلاغٍ، والآخرة دار قرار، فخذوا من مَفَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ، ولا تَهْتِكُوا أَسْأَارَكُمْ عند من لا تخفى عليه أسراركم، في الدنيا كنتم، ولغيرهم خُلِقْتُمْ. أقول قولي هذا

وأستغفر الله لي ولكم، والمُصلَّى عليه رسولُ الله، والمدعوُّ له الخليفة، والأمير جعفرُ بن سليمان.

خطبة لعمر بن عبد العزيز:

وحدَّثتُ في بعض الأسانيد أن عمر بن عبد العزيز، قال في خطبة له: أيها الناس، إنما الدنيا أَمَلٌ مُخْتَوِمٌ، وَأَجَلٌ مُنْتَقِصٌ، وبلاغٌ إلى دار غيرها، وسيرٌ إلى الموت ليس فيه تَعْرِيجٌ، فَرحِمَ الله أمراً فَكَّرَ في أمره، ونَصَحَ لنفسه، وراقب ربه، واستقال ذنبه، ونوَّرَ قلبه، أيها الناس قد علمتم أن أباكم قد أُخْرِجَ من الجنة بذنب واحد، وأن ربكم وَعَدَ على التوبة، فليكن أحدُكم من ذنبه على وجلٍ، ومن ربه على أَمَلٍ.

ويروى أن رجلاً قال: أتيتُ ابن عمر، فقلت أَتَجِبُ الجنةَ لعالم بكل الخيرات، وهو مُشْرِكٌ؟ فقال: لا، فقلت له: أَتَجِبُ النارَ لعامل بالشر كله وهو مُوَحِّدٌ؟ قال: عَشٌّ ولا تَغْتَرَّ، قال: وأتيت ابن عباس، فسألتَه، فأجابني بمثل جوابه سواءً وقال: عَشٌّ ولا تغتر. قال: وحدثني بهذا الحديث القاضي (يعني إسماعيل بن إسحاق).

خطبة لعتب بن أبي سفيان بالموسم:

وذكر العُتْبِيُّ، عن أبيه عن هشام بن صالح عن سعدِ القَصْرِ، قال: خَطَبَ الناسَ بالموسمِ عُتْبَةُ في سنة إحدى وأربعين، وعَهْدُ الناسِ حديثَ بالفتة، فاستفتح ثم قال:

أيها الناس، إِنَّا قد وَلَيْنَا هذا الموضعَ الذي يُضَاعَفُ الله فيه للمحسن الأجر، وعلى المسيِّ الوِزْرَ، فلا تمدوا الأعناقَ إلى غيرنا، فإنها تنقطع دوننا، وربُّ مُتَمَنٍّ حَقُّهُ في أُمْنِيَّتِهِ، اقبلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم، وإياكم و«لَوْ»، فقد أتعبتُ من كان قبلكم، ولئن تُرِجَ مَنْ بعدكم، فاسألوا الله أن يُعِينَ كُلًّا على

كلّ. فنَعَقَ به أعرابي من مؤخر المسجد، فقال: أيها الخليفة! فقال: لَسْتُ به ولم تُبْعِدْ قال: فيا أخاه! قال: قد أَسْمَعْتَ فقل، فقال: واللّٰه لأن تحسنوا وقد أسأنا خير لكم من أن تسيئوا وقد أحسنّا فإن كان الإحسان لكم فما أَحَقَّكُمْ باستتمامه، وإن كان لنا فما أَحَقَّكُمْ بمكافأتنا. رجل من بني عامر يَمُتُ إليكم بالعمومة، ويختص إليكم بالخولة، وقد وطئة زمانٌ، وكثرة عيالٍ، وفيه أَجْرٌ وعنده شُكْرٌ، فقال عتبة: أَسْتَعِيذُ باللّٰه منك وأَسْتَعِينُهُ عليك، قد أمرت لك بِغَنّاك، فليت إسراعنا إليك، يقوم بإبطائنا عنك.

خطبة لداود بن علي العباسي:

وذكر العتبي أو غيره أن داود بن عليّ بن عبد الله بن العباس خطب الناس في أول موسم مَلَكُهُ بنو العباس بمكة، فقال: شُكْرًا شُكْرًا، إنا واللّٰه ما خرجنا لِنُخْفِرَ فيكم نهرًا، ولا لِنَبْنِيَ فيكم قَصْرًا، أَظُنُّ عدوَّ اللّٰه أن لن نُقْدرَ عليه أن رُوحي له من خِطَامِهِ، حتى عَثَرَ في فَضْلِ زَمَامِهِ. فالآن حيث أخذ القوسَ باريها، وعادت النِّبْلُ إلى النَّزْعَةِ، ورجع ورجع المُلْكُ في نِصَابِهِ في أهل بيت النبوة والرحمة، واللّٰه لقد كنا نتَوَجَّعُ لكم ونحن في فُرْشِنَا، أَمِنَ الأسودُ والأحمرُ، لكم ذِمَّةُ اللّٰه، لكم ذِمَّةُ رسول اللّٰه ﷺ، لكم ذِمَّةُ العباس، لا وَرَبُّ هذه البَيْتَةِ، وأوماً بيده إلى الكَعْبَةِ، لا نَهِيْجُ مِنْكُمْ أَحَدًا^(١).

من خطب النكاح:

قال يحيى بن أكثم: أراد المأمون أن يزوّج ابنته من الرضا فقال: يا يحيى؛ تكلم، فأَجَلَلْتُهُ أن أقول: أنكحت، فقلت: يا أمير المؤمنين، أنت الحاكم الأكبر، والإمام الأعظم، وأنت أَوْلَى بالكلام، فقال: الحمدُ للّٰه الذي تصاغرت

١- الكامل في اللغة والأدب، العلامة أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، مؤسسة المعارف بيروت، ط الأولى، المجلد ١٩٩٥، ص (٢٥٤).

الأُمُورُ بِمَشِيئَتِهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِقْرَاراً بِرَبُوبِيَّتِهِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ عِنْدَ ذِكْرِهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ النِّكَاحَ دِينًا، وَرَضِيَهُ حُكْمًا، وَأَنْزَلَهُ وَحْيًا؛ لِيَكُونَ سَبَبَ الْمُنَاسِبَةِ؛ أَلَا وَإِنِّي قَدْ زَوَّجْتُ ابْنَةَ الْمُأْمُونِ مِنْ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى، وَأَمَهَرْتُهَا أَرْبَعِمِائَةَ دِرْهَمٍ، اقْتِدَاءً بِسُنَّةِ ﷺ، وَانْتِهَاءً إِلَى مَا دَرَجَ إِلَيْهِ السَّلَفُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(١).

١- زهر الآداب وثمر الألباب، المجلد الأول ص (٤٠٠).

المبحث الأول : المقالة وأنواعها وبنائها الفني:

أولاً: تعريف المقالة:

المقالة فن من فنون النثر أو نوع من أنواع الكتابة النثرية - وكغيرها من فنون النثر - لها تعاريف كثيرة، لكن هذه التعاريف تكاد تكون متقاربة مع اختلاف اللفظ، كلها اجتهادات خاصة لأصحابها.

فمثلاً يعرفها الدكتور / محمد يوسف نجم - بعد أن ذكر بعض تعاريف لها عند غيره - أنها:

"قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع، تكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من التكلف والرهق. وشرطها الأول أن تكون تعبيراً صادقاً عن شخصية الكاتب." (1)

وبعد أن ذكر أيضاً الدكتور / السيد مرسى أبو زكري أهم تعاريف نقاد الغرب والعرب للمقالة عرفها بأنها: "نمط من التعبير الحر المصور لأحداث الحياة، وصور المجتمع، نتعرف به على ملامح كل جديد وخصائص كل مبتكر، وسمات كل مستحدث من سياسة وأدب واجتماع ونقد وعلوم في أقرب وقت وبأقل جهد." (2)

ويعرفها الدكتور / عبد اللطيف الحديدي بأنها: تجربة عقلية ووجدانية يمر بها الكاتب، ويتمثل خطوطها، ويعبر عنها بأسلوبه الخاص الذي يحمل طابعه الشخصي، وهي قطعة نثرية لها هيكل يبدأ من فكرة معينة ويظل يشعر

(1) د/ محمد يوسف نجم: فن المقالة، ط 4، دار الثقافة، بيروت (د. ت)، ص 95.

(2) د/ السيد مرسى أبو زكري: المقال وتطوره في الأدب المعاصر، ط 1، دار المعارف القاهرة،

1981-1982م، ص 69

بالنهاية في كل من الأجزاء إلى أن تكشف العبارة الأخيرة عن المضمون، وتبرر وجود العبارات السالفة وتلاحمها في البناء⁽¹⁾.

ومهما يكن من تعريف لها، فهي في النهاية فكرة ملحة على الكاتب أراد التعبير عنها في إطار بسيط من الشر الفني، قد تكون فكرة شخصية أو اجتماعية أو سياسية أو ثقافية أو غير ذلك، للكاتب فيها وجهة نظر أو تعبر عن وجهة نظر ما، يعرضها على قارئه بأسلوب يناسبها ويناسب قارئها، فتمتاز لغتها بالسلاسة والوضوح، وأسلوبها بالجاذبية والتشويق، بهدف الإقناع أو التوضيح أو الإثارة.

* * *

ثانيًا: تطور المقالة في الأدب المعاصر:

للمقالة جذور ضاربة في تاريخ الأدب العربي، فقد ظهرت بذور المقالة في أدبنا العربي منذ القرن الثاني الهجري، والعودة إلى كتب الأدب العربي تبدي لنا عن نماذج مقالية في: الكتابة، والسياسة، والاجتماع، والفنون، والعلوم ... كالرسائل الإخوانية والعلمية: رسائل عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ وغيرهم.⁽²⁾

وقد عرف عصرنا الحديث المقالة منذ فاتحته، وظهرت حاجة المعاصرين إلى المقالة، إذ كان عصرنا في حضارته يود غذاءً روحياً وعقلياً كخبزه اليومي،

(1) د/ عبد اللطيف محمد السيد الحديدي: فن المقال في ضوء النقد الأدبي، ط1، النهضة المصرية، القاهرة، 1996م، ص 15 "بتصرف".

(2) د/ محمد يوسف نجم: فن المقالة، ص 17. "بتصرف".

فوجد المقالة وسيلة إليه، فنما هذا الفن في ظلال هذا العصر، وبرزت المقالة في الصحف اليومية والأسبوعية والمجلات الشهرية⁽¹⁾.

"وبدأت المقالة في مستهل عصرنا مشحونة بالصنعة اللفظية، لتأثر كاتبها بالنزعة اللفظية الغابرة التي كانت مهيمنة على أدب عصور الانحطاط حين غلبت على الأفكار والأقلام هذه الصناعة، وبخاصة نظام السجع والمحسنات البديعية، غير أن عصرنا بما عرف فيه من التخلي عن القيود الغابرة في الأدب والفن صار يتأبى على التكلف في التعبير، ويتخلص من أثقال التزييق في المقالة. وبذلك أصبحت في العصر الحديث من أرقى فنون الأدب، وكانت هي النموذج الجميل الذي يدل على قيمة النشر وروعة البيان الحديث." (2)

وكان للصحافة العربية والعودة إلى التراث العربي في عصور ازدهاره، والاتصال بالأدب الغربي الحديث، ونشأة المطابع التي سهلت سرعة النشر، والأحداث والتغيرات التي جددت على ساحة الأمة العربية اجتماعية وسياسية وثقافية وعلمية، بالإضافة إلى وجود عدد من الكتاب البارزين الذين تخصصوا في كتابة المقالات، دور كبير في تطور هذا الفن وازدهاره في العصر الحديث." (3)

* * *

(1) د/ زكى المحاسني: نظرات في أدبنا المعاصر، دار القلم، القاهرة، 1962م، ص 105.

بتصرف

(2) السابق: ص 106

(3) د/ عبد اللطيف الحديدي: فن المقالة في ضوء النقد الأدبي، ص 21 بتصرف

ثالثاً: التقسيم الفني للمقالة العربية الحديثة:

وكما أنه من الصعب تحديد تعريف دقيق للمقالة، فكذلك من الصعوبة تقسيمها وتحديد أنواعها التي تصطبغ بها تبعاً للموضوع الذي تناوله أو تبعاً للأسلوب، لأن هذه الأنواع متشابكة ومتداخلة مع بعضها البعض.

وقد أقرّ بهذا مَنْ كتب عن فن المقالة، ولكن تسهلاً للبحث فيها، حاولوا تقسيمها، فدرج كثير منهم إلى تقسيم المقالة إلى نوعين:

(مقالة أدبية، ومقالة موضوعية)، ولكنهم في الوقت نفسه يشيرون إلى (المقالة الصحفية) ⁽¹⁾ ومنهم من قسمها إلى ثلاثة أقسام مضيفاً إلى المقالتين الأدبية والموضوعية المقالة الصحفية. ⁽²⁾

وفي كلٍ يراعى عند التقسيم موضوعها، وأسلوبها، ووظيفتها:

ففي المقالة الأدبية - أو الذاتية كما تسمى أيضاً - "تبدو شخصية الكاتب جليلة جذابة، تستهوي القارئ وتستأثر بلبّه، وعُدّته في ذلك الأسلوب الأدبي الذي يشع بالعاطفة، ويثير الانفعال ويستند إلى ركائز قوية من الصور الخيالية والصنعة البيانية، والعبارات الموسيقية، والألفاظ القوية الجزلة" ⁽³⁾ وأهم ألوانها: "الصورة الشخصية - مقالة النقد الاجتماعي - المقالة الوصفية - وصف الرحلات - مقالة السيرة - المقالة التأملية" ⁽⁴⁾، يضاف

(1) د/ محمد يوسف نجم: فن المقالة، ص 96، وانظر: د/ عبد اللطيف الحديدي: فن المقالة في ضوء النقد الأدبي، ص 27.

(2) د/ محمود شريف: فن المقالة، ط 2، أبوللو، القاهرة، 1989م، ص 131 وانظر د/ عطاء كفاي: المقالة الأدبية ووظيفتها في العصر الحديث، ط 1، هجر، القاهرة، 1985م، ص 33.

(3) د/ محمد يوسف نجم: فن المقالة، ص 96.

(4) السابق: ص 102 - ص 118.

إليها "المقالة القصصية" ⁽¹⁾، كما تضاف المقالة: "السياسية، والعاطفية، والدينية، والتأبينية" ⁽²⁾.

وفي النوع الثاني - المقالة الموضوعية -:

"تُسَقِّطُ عناية الكاتب، ومن ثم القارئ حول موضوع معين، يتعهد الكاتب بتجليته مستعيناً بالأسلوب العلمي الذي يسر له ذلك. ومن خصائص هذا الأسلوب الوضوح والدقة والقصد وتسمية الأشياء بأسمائها. ولا يبيح الكاتب لشخصيته وأحلامه وعواطفه أن تطفئ على الموضوع، ومن ذلك أن يضحى بحريته في عرض أحاسيسه الخاصة في سبيل الحفاظ على حدود الموضوع ومنطقه الخاص وبنائه القائم على المقدمات والعرض والنتائج .

فالفروق الأساسية بين هذين النوعين إذاً هي أن المقالة الذاتية تعنى بإبراز شخصية الكاتب، بينما تعنى المقالة الموضوعية بتجلية موضوعها بسيطاً واضحاً خالياً من الشوائب التي قد تؤدي إلى الغموض واللبس ... لكنهما أخيراً تنبعان من منبع واحد، هو رغبة الكاتب الملحة في التعبير عن شيء ما" ⁽³⁾.

وأهم ألوانها: المقالة النقدية في حقول الأدب والفن - المقالة الفلسفية -

المقالة التاريخية - المقالة العلمية - مقالة العلوم الاجتماعية ⁽⁴⁾

(1) د/ محمود شريف: فن المقالة، ص 6 .

(2) د/ عبد اللطيف الحديدي: فن المقالة في ضوء النقد الأدبي، ص 35 - ص 45 .

(3) د/ محمد يوسف نجم: فن المقالة، ص 96 .

(4) السابق: ص 132، ص 133 .

أما المقالة الصحفية: فلم تكن معروفة في البداية، حيث لم يفرق بينها وبين غيرها، ويمكن تعريفها بأنها: "المادة الصحفية التي تعبر بشكل مباشر عن سياسة الصحيفة أو المجلة التي تنشرها وعن آراء بعض كتابها فيما يشغل الرأي العام من أحداث جارية وقضايا، مستهدفة تكوين رأى عام إزاء هذه الأحداث. أو محاولة إحداث تأثير في رأى عام. وقد تعرض المقالة أفكاراً خاصة ورؤى ترتبط بمصالح القراء واهتماماتهم، أو تمس حياة الصحفي وتجاربه، ويرى أنها يمكن أن تهتم القراء." (1)

ومن ألوان المقالة الصحفية: المقالة الافتتاحية - العمود الصحفي -
اليوميّات الصحفية - المقالة التحليلية. (2)

وعن وظيفة المقالة الصحفية تجد أنها تهدف إلى أداء وظائف الإعلام، حيث تقوم بوظيفة الشرح والتفسير، التعليم والتثقيف، والتوجيه والإرشاد، والتنشئة الاجتماعية إضافة إلى التسلية والإمتاع. (3). وإن كانت هذه الوظائف - في أغلبها - تشمل النوعين الآخرين من المقالة.

وقد ارتبطت المقالة الصحفية بأسلوب مبسط سهل واضح يناسب جمهور القارئ.

من التعريفات السابقة، والقراءة في الفن المقالى تلاحظ أن: تقسيم المقالة إلى أدبية وموضوعية وصحفية مجرد تقسيم مبدئي، بغرض تحديد مجالات الدراسة - كما ذكرت من قبل - لأن متابع فن المقالة كثيراً ما يجد

(1) د/ محمود شريف: فن المقالة، ص 179.

(2) السابق: ص 180. وانظر: د/ عبد العزيز شرف: فن المقال الصحفي، سلسلة كتابك، رقم 135، دار المعارف، القاهرة، (د. ت)، 53.

(3) د/ محمود شريف: فن المقالة، ص 180.

مقالة تصلح أن تنسب لأكثر من موضوع، بحيث يمكن أن تصنف على أنها مقالة أدبية موضوعية في الوقت نفسه، أو أدبية صحفية، أو موضوعية صحفية، لأن هذه المقالات المشتركة تضم سمات أكثر من نوع مقالتي، نتيجة لأبعاد موضوع المقالة ولطاقات المقالتي وخبراته. وأن موضوع المقالة يمكن أن يتناول بأكثر من أسلوب، كما أن مجال نشر هذه المقالات يكاد يكون واحدًا هو الصحف والمجلات. (1)

ومن الممكن أن نجد فيما بعد ألوان أخرى من المقالة تشملها المقالة الأدبية والموضوعية والصحفية - بالإضافة إلى الألوان الحالية - لأن هذا الفن حر طليق متجدد .

رابعًا: البناء الفني للمقالة:

ولكل لون من ألوان المقالة مضمونه وشكله وأسلوبه الذي يميزه عن الألوان الأخرى، ولكن للمقالة عامة بناءها الفني الذي يميزها عن ألوان الشر الأخرى و يضم ألوانها جميعًا، هذا البناء يعتمد على:

1- المضمون: وهو الفكرة أو الموضوع الذي تدور حوله المقالة

2- الشكل أو القالب: وهو بدوره ينقسم إلى قسمين:

أ- الخطة أو التصميم: وهو التسلسل والترتيب الذي يبرز الأفكار والمعاني في تنظيم متسق ونظام متفق دون خلل أو غموض وتعمية، وأهم عناصره: المقدمة والعرض والخاتمة، والمقدمة عادة ما تكون مثيرة للانتباه، كاستعمال أساليب التعجب والاستفهام، وإيراد المشهور أو غير

المؤلف من العبارات. وتتسم الخاتمة بالتركيز والوضوح، فهي الإضاءة الأخيرة الساطعة. (1)

وقد تأتي المقالة بدون مقدمة أو بدون خاتمة أحياناً. أو يتخذ الكاتب تصميمًا آخر غير ذلك، كأن يأخذ قالب الرسالة أو القالب القصصي ليصب فيه موضوع مقالته.

ب- الصياغة: هي وسائل التعبير التي يعالج بها الموضوع من لغة - بمفرداتها وتراكيبها - ووسائل التصوير المتعددة. وللعاطفة دور في الصياغة واختيار الأساليب.

وبعد هذا العرض الموجز للمقالة وأنواعها وبنائها الفني، سوف نعالج - إن شاء الله - في الصفحات التالية - وبشيء من التفصيل - (فن المقالة) من خلال التطبيق على مقالات إلياس قنصل الأديب المهاجري، فتتضح الصورة أكثر فأكثر لسمات المقالة وأنواعها وطريقة بنائها عامة، وعند إلياس قنصل خاصة.

(1) د/ عبد الرزاق حسين: فن الشر المتجدد، ط1، المختار للنشر والتوزيع - القاهرة، 1998م، ص 54 "بتصرف".

المبحث الثاني: المقالة وأنواعها عند إلياس قنصل:

لم تقتصر الكتابة عند الأديب إلياس قنصل على الشعر فقط، بل كتب النثر خاصة المقالة، وقد جال بقلمه في شتى ألوانها، وواكبت مقالاته الوقت الذي انتشرت به الصحف والمجلات في مهجره والوطن العربي، فأخذ ينشر مقالاته بها هنا وهناك خاصة المقالات الشهيرة .

ولم يكتف بذلك، بل أراد لمقالاته البقاء فجمع جزءاً منها في كتابه: "أصنام الأدب" ⁽¹⁾ - حيث جمع فيه خمس عشرة مقالة من مقالاته النقدية - و" هنا وهناك " ⁽²⁾ .

وقد كان هذا دأب غيره من الأدباء الذين نُشرت لهم مجاميع مطبوعة وهي محشر مقالاتهم في شتى الموضوعات.

كان هذا دليلاً على ازدهار المقالة في تلك الفترة، فكثير من الكتب الجيدة التي نراها الآن لكبار الكتاب وهم يعتزون بها ويذكرونها في مقدمة آثارهم، إنما انتشرت أولاً في الصحف على هيئة مقالات ثم جمعت بعد ذلك في شكل كتب، ومن تلك الكتب: "حديث الأربعاء لطفه حسين"، و"في أوقات الفراغ لمحمد حسين هيكل"، و"مطالعات في الكتب والحياة" و"ساعات بين الكتب" لعباس محمود العقاد و"حصاد الهشيم" و"قبض الريح" لإبراهيم عبد القادر المازني، وغيرهم كثير ⁽³⁾ .

(1) إلياس قنصل: أصنام الأدب: إصدار مجلة المناهل، بوانس أيرس، 1939.

(2) إلياس قنصل: هنا وهناك، الدار التونسية للنشر، 1969 م .

(3) د/ أحمد هيكل: تطور الأدب الحديث في مصر "من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام

الحرب الكبرى الثانية"، ط4، دار المعارف، القاهرة، 1983م، ص 376 .

وقد صنف مقالاته في كتابه "هنا وهناك": الذي يضم خمسين وخمسين مقالة من مقالاته - بحسب موضوعاتها غالباً - ووضع عناوينا لكل قسم منها يضم مقالات تتشابه، فجاء تقسيمه كالتالي:

- (آراء): يضم ثماني عشرة مقالة .
- (أدب): يضم سبع مقالات .
- (مشاهد): يضم ست مقالات .
- (قومية): يضم اثنتي عشرة مقالة .
- (أسماء): يضم اثنتي عشرة مقالة .

وتلاحظ على هذا التقسيم: أنه قد استخدم مسميات لكل قسم تختلف عما سميت به في التقسيم الفني الحديث للمقالة، وإن كانت لا تتعارض مع موضوعاتها. فمثلاً: (مشاهد) يُقصد بها المقالات الوصفية، و (أسماء) يقصد بها مقالات السيرة أي سيرة صاحب هذا الاسم.

ولكن قد تخليت عن هذا التقسيم لعدم دقته، كما أردت تسهيل الدراسة لمقالاته، فاتجهت إلى التقسيم الفني الحديث، ناظماً مقالاته تحت كل قسم بحسب خصائص كل مقالة من ناحية الأسلوب أو الموضوع .

وربما اختلفت معه في توزيع مقالاته على الأقسام، كل هذا لأقرب بالبحث فيها إلى الدقة والوضوح، ولأجمع تحت هذا التقسيم مقالات أخرى لم يضمها كتابه "هنا وهناك".

وبعد الاطلاع على مقالاته وجدت أن أنواع المقالة لديه: مقالة أدبية ومقالة موضوعية. (1)

وسوف تكشف الدراسة عن نصيب الكاتب في مجال كل منهما على حدة، وألوانهما، وطريقة معالجته لهما، وخصائصهما:
أولاً: المقالة الأدبية الذاتية: ألوانها في أدبه وخصائصها:

إن حظ المقالة الأدبية من الجانب الشخصي كبير واضح - كما ذكرت من قبل - وبعد الاطلاع على مقالات "إلياس قنصل" التي بين يدي وجدت أنه قد جعلها وعاء لمعظم مقالاته، فصار لها أثر ومكانه كبيرة في أدبه المقالي خاصة، وأدبه كله عامة، من ناحية الكم والكيف، وجاءت لتمثل شخصية الرجل ومزاجه واتجاهاته.

كما وجدت أن كثيراً من ألوان المقالة الأدبية ينتظم في أدبه: فهي شخصية، واجتماعية، وسياسية، ووصف الرحلات، وسيرة.

والآن سوف أتناول كل لون من ألوانها عنده، عارضاً لموضوعاته فيها، ممثلاً بنود أو أكثر لأستنتج منه أهم خصائص هذا اللون ومميزاته:

1- المقالة الشخصية:

"هي خير ما يمثل هذا النوع، إذ أنها تعبير صادق عن تجارب الكاتب الخاصة، والرواسب التي تركها انعكاسات الحياة في نفسه. وهي في أحسن حالاتها ضرب من الحديث الشخصي الأليف، والثروة والاعتراف والبوح.

(1) لم تأت المقالة عنده صحفية - في هذا التقسيم الفني الحديث للمقالة، وإن كانت قد امتزجت بها وتأثرت بالصحافة حيث أن مجال نشر تلك المقالات هو الصحافة، وسوف أشير إلى هذا التأثير عند دراستي لأسلوبه العام في مقالاته.

لكنها تمتاز إلى جانب ذلك بروعة المفاجأة، وتوقد الذكاء وتألق الفكاهة. ولا تخلو من السخرية الناعمة أو الحادة تبعاً لاتجاه الكاتب وألوان شخصيته⁽¹⁾. وتعد المقالة الشخصية في أدب "إلياس قنصل" خير مثال للدلالة على شخصيته المرححة الواعية، والتي تعكس قسماً كبيراً من فكاهته الحلوة وسخريته الناعمة، كما تعكس تمرسه في الحياة ووعيه بها، وتأمله حتى في أصاغرها، آخذاً من حياته الخاصة شاهداً عليها.

وقد شاع هذا اللون من مقالاته بعد تحرر موطنه سورية - وكذا كثير من البلدان العربية - من نير الاحتلال، وأحس معه بحريته الشخصية، هذه الحرية التي تلمسها أيضاً في مهاجره وقد أخذ من عبقها لينشره على مقالاته فتلونت بها.

وإذا قارنت من ناحية العدد بين هذه المقالات وغيرها في أدبه تجدها أكثر عدداً وأوسع انتشاراً.

من أمثلة تلك المقالات لديه مقالاته: "تباً لها من ساعة"⁽²⁾ - "قيود من الذهب"⁽³⁾ -

"زلزلة نفسية"⁽⁴⁾ - "أدب القشور وأدب اللباب"⁽⁵⁾ - "أكبادنا تمشي على الأرض"⁽⁶⁾ - "حفلات الأكل .. ترفع مقامنا"⁽¹⁾ - "في ذمم القراء"⁽²⁾

(1) د/ محمد يوسف نجم: فن المقالة، ص 102.

(2) المواهب: بوانس أيرس، السنة الأولى، 1945م، العدد 1، ص 15.

(3) السابق: السنة الأولى، 1945م، العدد 2، ص 17.

(4) السابق: السنة الثانية، 1946م، العدد (1، 2)، ص 15.

(5) السابق: السنة الثانية، 1946م، العدد 5، ص 15. وانظر: هنا وهناك: ص 26.

(6) السابق: السنة الأولى، 1945م، العدد 6، ص 17.

– "أنا رجل أصيب بالعين" (3) – "أين صرفت جميع ما اقتصدت" (4) – "لماذا أكتب؟" (5) – "الوجه الجلط" (6) – "إرضاء الناس" (7) – "أأنت خير من الناس؟" (8) – "شفرة حلاقة أو مركب بخاري؟" (9) – "ما أثقل دمك" (10) – "البلاهة كما يشرحها إلياس قنصل" (11) – "أشكال الحديث" (12) – "نصيحة تساوي جملاً" (13) – "أسطورة ثروتي" (14) – "لماذا تخاف من الميت؟" (15) – "الجزمة السوداء" (16) – "مسافرون في سيارة" (17) – "فلسفة جديدة" (1) – "كيف تكون العظمة" (2)

- (1) السابق: السنة الثانية، 1946 م، العدد 6، ص 24.
- (2) السابق: السنة الثانية، 1946 م، العدد 10، ص 16.
- (3) السابق: السنة الثانية، 1946 م، العدد 11، ص 17.
- (4) السابق: السنة الثالثة، 1947 م، العدد 1، ص 13.
- (5) السابق: السنة الرابعة، 1948 م، العدد 9، ص 15.
- (6) السابق: السنة الرابعة، 1948 م، العدد 10، ص 10.
- (7) السابق: السنة الخامسة، 1949 م، العدد (1، 2)، ص 19.
- (8) السابق: السنة الثانية، 1946 م، العدد 9، ص 21.
- (9) السابق: السنة الخامسة، 1949 م، العدد الخامس، ص 28.
- (10) السابق: السنة الخامسة، 1949 م، العدد 7، ص 18.
- (11) السابق: السنة الخامسة، 1949 م، العدد 8، ص 11.
- (12) السابق: السنة الخامسة، 1949 م، العدد 9، ص 23.
- (13) السابق: السنة الخامسة، 1949 م، العدد 10، ص 15.
- (14) السابق: السنة السادسة، 1960 م، العدد 1، ص 11.
- (15) السابق: السنة السادسة، 1950 م، العدد (6، 7)، ص 27.
- (16) السابق: السنة السابعة، 1951 م، العدد 5، ص 26.
- (17) إلياس قنصل: هنا وهناك، ص 23.

ولناخذ أنموذجاً من هذه المقالات كي نستنبط منه طريقته وأسلوبه فيها: مقالته "إرضاء الناس":

يقول فيها: "هل أنت واسع الصدر، طويل الأناة؟ هل تتلقى المصاعب والكوارث بهدوء واطمئنان؟. حاول إذن إرضاء الناس. وما إرضاء الناس؟ مهما كان شأنك ضئيلاً في الوجود لا بد من أن يكون أنسابك وأصدقائك ومعارفك ثمانين على الأقل، ومهما كان هؤلاء متجانسين عقلاً ونفساً وقلباً، فلا بد من أن يكون كما يشتهي كل منهم أن تكون، وهيئات أن يرضى متساهلهم أن يتساهل معك قليلاً.

لك أن تعترض بقولك: إن الذي يساير جميع الناس يعيش سعيداً -خبرني بربك كيف تتمكن من أن تساير واحداً من الناس؟ اصغ إليّ، فأنا المجرب.

-منذ سنوات عديدة التفتُّ إلى نفسي، فوجدتني كاللص الذي تلاحقه الشرطة، لا مقر ثابت لي، تنتقل حياتي من بؤرة اضطراب إلى غمرة قلق، وتبدى لي مستقبلي أشد قتاماً من خاطري، وبحث فتعرفت السبب:

إن حلقة العذوبة التي أدور فيها أبعد الحلقات عن السعادة، ومن أرادها باردة مبردة، فعليه أن يتزوج. وتوكلت على الله، وقررت أن أبني أسرة ومضيت أفتش عن العروس. وكنت أظن أن القضية تقتصر على أن أقف في زاوية شارع مطروق، وأستعرض الغانيات التي تمر فيه إلى أن تقع عيني على واحدة تروقني فأناديها إن كانت تسير على مهل، وألحق بها إن كانت مسرعة

(1) المواهب: السنة السابعة عشرة، 1961م، العدد (5، 6)، ص 33.

(2) الوحدة العربية: بوانس أيرس، سنة 1946م، عدد تشرين الأول، ص 179.

وأصرخ: - يا فلانة ! لقد أحبيتك فهلُمِّي. فتقول لي: كما تشاء وينتهي الأمر. ولكن القصة لم تكن سهلة كما ظننت.

وتوقفت بعد مجهود ليس هذا مجال عرضه، فلقيت فتاة رضيت أن أكون لها بعلاً، وهذه أوصافها وعلاماتها الفارقة:

كانت في عامها السابع عشر، جميلة القسمات، يفيض وجهها سروراً ذات ثقافة عالية، وتهذيب قليل نظيره، والدها من ذوى المقام الرفيع.

ونشرت الخبر بين الأصدقاء فبسطوا أيديهم إليّ مهئينين إلا واحداً ظل صامتاً، وقد بدت على محياه دلائل التفكير العميق، واستغربت حالته، فسألته سرّاً عما همّه، فصمتَ برهةً طويلة كمن أصابته سكتة قلبية ثم أجابني بنبرة هادئة:

- أنت صديق عزيز عليّ، وأحب أن أجاهرك بالحقيقة التي لم ترها عينك. كيف أعجبتك هذه الفتاة؟ وأين كان ذوقك حين وقعت في حبائلها؟ لا أعني إنها شاردة عن السبيل السوّي، معاذ الله ! ولكن ألم تنتبه أنها طويلة القامة وأنت قصيرها؟ فإذا تأهلتها - كما تنوي - أصبحت أضحوكة الناس.

إن التقاليد تقضي بأن الزوج أطول من الزوجة فإن لم يكن كذلك، فليكن على أقل تعديل مثلها طولاً. قف إلى جانب عروسك أمام المرأة ثراً عدم الطباق بينك وبينها. وتأمل العابرين في السوق، أتبصر زوجين هي أطول منه ولا تبصر نظرات الواقفين هازئة؟ أنا لا أرضى على الإطلاق أن تكون مضغة الساخرين! فكر في الأمر جيداً قبل الإقدام عليه، وتركني ومضى.

وكان الرجل صادقاً في نصف حديثه، فقد كانت الفتاة أطول مني قليلاً. ورأيت أصداء كلماته في سمعي: مضغة الساخرين، مضغة الساخرين. واقتنعت. وذهبت - توأ - إلى دار عروسي ولفقت عليها أكذوبة كانت نتيجتها فسخ عقد الخطبة.

وعُدت مرة ثانية أفتش عن فتاة تكون وفق الشروط التي حددتها لي ذلك الصديق. ولن أطيل الشرح، ووفقني الله مرة ثانية إلى فتاة لا تقل عن الأولى ثقافة وتهذيباً وجمالاً. وكانت قامتها أقصر من قامتي قليلاً، وأعلنت للأصدقاء الخبر. فمدوا أيديهم إلي مهنئين إلا واحداً - هو غير الأول - ألبس وجهه نقاباً من العبوس، وانتظر إلى أن فرغ الأصدقاء من هرجهم، وسار بي إلى زاوية المكان وقال:

- أنا صديق عزيز لك، ولا أريد أن أفعل ما يفعل زملاؤك الذين يقدمون إليك التهاني دون تفكير. إن الفتاة التي أخبرني أنها أصبحت عروسك من أفضل النساء، ولكنك أخطأت كل الخطأ في عزمك على اتخاذها زوجة. أنت قصير القامة، وهي قصيرة القامة، فإذا رزقكما الله مولوداً، فسيكون قزماً من الأقزام، ومهما كنت أنانياً، فمن الواجب عليك أن تفكر في مستقبل أولادك. وإذا كان الله قد حكم عليك بأن تكون قصيراً، فليس من العدل أن تُمدد أنت بيدك هذا الظلم إلى الأجيال الآتية. إن نصيحتي لك هي أن تفتش عن فتاة ممتلئة الجسم، فقد طالعت لأحد الأطباء بحثاً يؤكد فيه أن المرأة السمينة يكون أولادها عادة معتدلي القامة. واستعدت كلمة هذا الصديق بعد أن ابتعد عني، فأغررتني طلاوتها وذهبت فوراً إلى دار عروسي فلفقت عليها أكذوبة ثانية، طلبت هي مني على أثرها أن أتركها.

ومضيت من جديد أبحث عن عروس جديدة وكانت فتاة في العشرين من عمرها متكدس لحمها بعضه فوق بعض، لو شاء الله أن يعدل بتفصيلها، لخلق منها عائلة برمتها. وخطبتها، ورحت أتأملها ملياً من كل جانب وأقول لنفسي: لا شك أنها ستعجب الصديق العزيز الذي أشار علي بمثلها. وانتشر الخبر بين الأصدقاء، فوردوا علي مهنيين إلا واحداً - هو غير الثاني - خاطبني بالهاتف قائلاً:

— ماذا؟ أنت تنوي أن تبيعها بالميزان؟ وهل ضاقت بك الحياة إلى هذه الدرجة. أن عروسك على الرأس والعين تهدياً وأدباً، ولكن بربك أخبرني: إذا حدث خلاف بينك وبينها ولا بد من حدوثه يوماً - وأهوت عليك بصفعة واحدة فأني طيب يستطيع معالجتك بعدها؟ وإذا كانت - وهي بنت عشرين - تزن مائة وثمانين كيلو، فمتى بلغت الأربعين أصبحت ثلاثمائة وستين كيلو، وإذا ظللت حياً إلى أن تبلغ الثمانين وكان وزنها ستمائة وعشرين كيلو، فما يكون موقفك إزاءها؟

ورأيت حسابه مضبوطاً، ولم أكن قد انتبهت إلى هذه الناحية، فأسرعت إلى دارها، ولفقت عليها أكذوبة ثالثة وتخلصت منها بالتي هي أحسن .

وأختصر، فأقول: إني خطبت فتاة رابعة، فلم تعجب صديقاً رابعاً، وخامسة فلم يرض عنها خامس، وسادسة فلم ترق لسادس. وها قد خطبت حتى الآن مائة وعشرين فتاة، فكان كل صديق يجد في كل واحدة عيباً يزهدني فيها .

ولا يحسب القارئ أن هذا الذي وقع لي وقع مع الغانيات فحسب، لقد عانيت مثله في المآكل التي ألثمها، في الأزياء التي أوثرها، في البيوت التي أسكنها، في الملاهي التي أستلذ بها. في كل شيء.

ولا يظن القارئ أنى نسيج وحدي في هذا الذي جرى ويجري لي، كلا! إن هذه القاعدة تنطبق على الناس جميعاً. وابدأ أنت بالتجربة منذ الآن، راقب آراء الناس في شئونك. إذا اقتصدت في مصروفك قال الناس إنك بخيل، وإذا لم تقتصد حكموا بأنك مبذر ثقيل.

إذا تكلمت في المجالس العمومية كنت العلاك الثرثار، وإذا لم تتكلم فأنت في رأيهم - حمار. إذا ألقى التحية، قالوا لماذا ألقى التحية؟ وإذا لم تلقها فأنت مثال البربرية. إذا انزويت في بيتك، سألوا لماذا انزويت. وإذا لم تنزو، فأنت ابن كيت وكيت.

وقد أصبحت لكثرة ما كابدت منهم - من الناس - ذا أسلوب خاص في هذه الناحية، فأنا أقول لذاتي: ما دام العمل الذي أقوم به لن يرضيهم جميعاً، فلا اعتبر نفسي واحداً منهم، ولأرض - أولاً - هذا الواحد - نفسي - فهي أعرف منهم بما يناسبني. وذهبت إلى أبعد من ذلك وجريت على المنهج الذي عليه يجرون، وزدتهم خبثاً ونفاقاً؛ فلا يرتدي صديق لي طقمًا جديدًا إلا اخترعت له فيه عيوبًا عديدة، ولا يهم أحد معارفي بالقيام بسفرة إلا ارتجلت له عواقب وخيمة. وهكذا إلى ما لا نهاية له.

أنا ما جنيت على الناس، هم الذين بدأوا، والبادئ أظلم.

* * *

إذا طالعت مقالاته تجده واعياً كل الوعي عند كتابتها: يرتب أفكاره، ويعرضها بطريقة واعية، في إطار مناسب، حتى ولو كانت ضرباً من الثرثرة والمسامرة.

وطريقته أو خطته تقوم على المقدمة والعرض والخاتمة، وهذا الشكل يختلف بين مقالة وأخرى؛ فأحياناً يبدأ في عرضه دون مقدمة، كمقالته "ما

أثقل دمك"، وأحياناً تنتهي المقالة دون خاتمة كمقالته "حفلات الأكل .. ترفع مقامنا". كما قد تختلف المقدمة من مقالة لأخرى، فتأتي - مثلاً - على هيئة سؤال أو أكثر يلقيه على قارئه، وتكون إجابته موضوع - عرض - المقالة، مثل مقالته "لماذا أكتب؟" و "لماذا تخاف من الميت؟" وغيرهما. أو يبدأ مقالته بلغز وغموض يكشف هو عنه النقاب في عرض المقالة كما في مقالته "تباً لها من ساعة" عندما يتحدث عن الساعة أو الوقت بالمعنى الصحيح، وهذا مما قد يؤخذ عليه، فلا بد أن تكون مقدمة المقالة مركزة وواضحة ومباشرة. (1)

وكما ترى تستهل المقالة - "إرضاء الناس" - بطرح الكاتب بعض الأسئلة على القارئ وتجد أن الفكرة الأساسية - محور المقالة - هي أن إرضاء الناس من المحال، فكرة بسيطة عادية ولا يطالب الكاتب بجديتها بقدر ما يطالب بطريقة وأسلوب عرضها خاصة في المقالة الأدبية - فترى الكاتب يعالجها بأسلوبه الخاص، فيعطيهما - بما يضيفه عليها - طابع الجدة والطرافة . يعالج هذه الفكرة ويشرحها في عرض المقالة، ولا يتركها حتى تكون ناصعة أمام القارئ عن طريق القص والحكاية والحوار خاصة مع قارئه، ويلونها بشيء من الفكاهة كما في كثير من مقالاته .

والكاتب يقدم هنا الأمثلة الواقعية التي استمدّها من تجاربه الخاصة في الحياة، وتمرسه بها .

وفي النهاية .. يدعو قارئه أن يطبق هذه التجربة على نفسه هل يستطيع إرضاء الناس أم لا ؟

(1) د/ عبد اللطيف الحديدي: فن المقال في ضوء النقد الأدبي، ص 81 "بتصرف"

إذا بحثت عن شخصية الكاتب ونفسيته تجدها ظاهرة جلية حيث تعالج المقالة موضوعاً ينبعث من نفسه وإحساسه، وهو "محاولة إرضائه الناس وأثرها في حياته وشخصيته"، هذه المحاولة التي أفسدت عليه الكثير من شئونه الخاصة، ولم يستطع معها إرضاءهم، فكان أخبث منهم، ولم يقنع بشيء يأتونه. وفي كل هذا يعكس تجاربه في الحياة وأفكاره عنها.

هذا اللون كما ترى يتطلب أن يكون الأديب ناقدًا⁽¹⁾. وتختلف درجة النقمة من مقالة وأخرى حسب نفسيته حين كتابتها، وحسب موضوعها؛ فقد تكون نقمة خفيفة تختفي داخل لون من التفكه الجميل أو السخرية الضئيلة - كما في هذه المقالة - أو نقمة شديدة تراها في مقالته "أدب القشور وأدب اللباب" حيث صب نقمته على ناquديه بأن أدبه أدب قشور تافه، وذلك من خلال حوار بينه وبين صديق يسأله: كيف تجد موضوعات مقالاتك؟ كي يفعل مثلها. ومع هذه النقمة الشديدة خلت من الفكاهة.

وقد يشيع في مقالته لون من الأسى والحزن تغلف نقمته، مثلاً: عندما تنزل نفسك من جراء ما يفعله مجرمو الحرب في مقالته "زلزلة نفسية - صلاة أم فقدت وحيدها في الحرب الماضية".

وقد تختفي النقمة نهائياً، ولا يكون إلا الفكاهة التي لا تملك معها إلا إظهار نواجزك ضاحكاً، كما في مقالته "أين صرفت جميع ما اقتصدت؟". بل قد يختفيان لتجد التأمل فقط - وإن كان لا يخلو من نقمة مختفية - كمقالته "لماذا أكتب" و "مسافرون في السيارة".

(1) د/ زكى نجيب محمود: جنة العبيط، ط2، دار الشروق، بيروت / القاهرة، 1982م، ص 9. "بتصرف".

ثم يأتي دور الصياغة - وهي جزء من الأسلوب العام -
والذي لا شك فيه أن المقالة الأدبية تعتمد إلى حد كبير - ككل الفنون
الأدبية - على صياغتها، ذلك أن البراعة في الصياغة سبب قوي من أسباب
المتعة التي يجدها القارئ، ويضطرب لها في تذوق الفن الأدبي.⁽¹⁾
تجد أن الكاتب أثر السهولة والرقّة في التعبير في ترسل عذب، من خلال
الفاظ واضحة، ومعان ظاهرة. وقد جاءت موسيقاه عذبة، فهو يعمد أحياناً
إلى موازنة الجمل مع استعمال السجعة قليلاً، كقوله: "إذا اقتصدت في
مصروفك قال الناس إنك بخيل، وإذا لم تقتصد حكموا بأنك ثقیل.
إذا تكلمت في المجالس العمومية كنت العلاك الثرثار، وإذا لم تتكلم فأنت
في رأيهم حمار..."

وقد جاءت جملة في أغلبها طويلة نسبياً .

أما التصوير فلا تراه إلا معتمداً عليه في جميع مقالاته الأدبية، ولكن
يختلف حظ كل مقالة عن الأخرى منه، ففي هذه المقالة مثلاً تجد الصور قليلة
كتصويره لنفسه - في عدم استقرارها - باللص الذي تلاحقه الشرطة،
وإن كان يرسم لنا صوراً كوميدية لحاله مع كل عروس لو تزوجها، حيث
يغلب عليها طابع الفكاهة أو تصويره لحالة صديقه الذي "ألبس وجهه نقاباً
من العبوس" كناية عن الحزن.

(1) د/ محمد أبو الأنوار: مصطفى لطفي المنفلوطي، مكتبة الشباب، القاهرة، 1981م، ج 1،

وأحياناً كثيرة يلجأ إلى عنصر "المبالغة" خاصة في وصف حالة، أو رسم صورة كاريكاتيرية، ومثالها هنا: تصويره للفتاة الممتلئة الجسم، وحسابه لمعدل نمو جسمها، وماذا يحدث لو صفته في مشاجرة بينهما؟

* * *

وقد يلجأ الكاتب إلى طريقة أو قالب آخر: هو القالب القصصي العام - الذي يشمل المقالة كلها - ليقدّم من خلاله آراءه وأفكاره وتجارب الشخصية - لا كسابقه الذي يقوم على (المقدمة والعرض والخاتمة)، والذي يعتمد على حادثة أو أكثر في عرض المقالة، فتكون ضرباً من الأمثلة والبراهين ليدعم بها فكرته .

والقالب القصصي، أو المقالة القصصية - كما يسميها البعض - قريبة إلى حدٍ بعيد من الأقصوصة أو القصة، إذ تقدّم حكاية، وهي تتخذ من البناء الدرامي شكلاً لها، وإن كانت تختلف عن القصة في أنها لا تحفل بكل الأركان الفنية لكتابة القصة، فهي قد تستفيد من ركن أو أكثر من أركان القصة لا كل الأركان. (1)

ولمرونة شكل القصة ومرونة شكل المقالة أصبح الفصل بينهما صعباً . والمقالة القصصية تدخل ضمن المقالة الأدبية بسماتها، خاصة الشخصية منها، وقد تتداخل مع بعض الألوان الأخرى من المقالة الأدبية كالاقتصادية والسياسية، ولكن الذي حدا بي إلى تصنيفها كمقالة شخصية أن الكاتب شخص من شخوصها، سواء أكان شخصيّة رئيسة أو ثانوية، فهي بمثابة ترجمة ذاتية له .

(1) فن المقالة: د / محمود شريف، ص 158 .

وخير مثال على ذلك أن هناك بعض القصص في مجموعته القصصية من مناهل الحياة⁽¹⁾ التي بتحليلها صنفتم كمقالة قصصية، لفقدتها بعض الأركان الفنية لكتابة القصة، وهي:

(الفرسان الثلاثة)⁽²⁾ - "الواقع الغريب"⁽³⁾ - "دستور السلطان"⁽⁴⁾ - أبو البيانات⁽⁵⁾ - أصحاب المداس⁽⁶⁾ - "دومنكو السكير"⁽⁷⁾ .

وله مقالات قصصية أخرى خارج نطاق هذه المجموعة القصصية، مثل:

("الله الله يا دنيا"⁽⁸⁾ - "ملايين تضحل كالمدخان"⁽⁹⁾ - تجديد في الأمثال"⁽¹⁰⁾ - "أزمة الدولار 1"⁽¹¹⁾ - "أزمة الدولار 2"⁽¹²⁾ - "فلسفة جديدة"⁽¹³⁾) .

(1) إلياس قنصل: من مناهل الحياة، ط1، دار الجمهورية، بغداد، 1967م

(2) السابق: ص 19 .

(3) السابق: ص 30 .

(4) السابق: ص 33 .

(5) السابق: ص 58 .

(6) السابق: ص 75 .

(7) السابق: ص 93 .

(8) المواهب: السنة الأولى، 1954 م، العدد 3، ص 25 .

(9) السابق: السنة الأولى، 1954 م، العدد 4، ص 9 .

(10) إلياس قنصل: هنا وهناك: ص 79 .

(11) السابق: ص 101 .

(12) السابق: ص 104 .

(13) المواهب: السنة السابعة عشرة، 1951 م، عدد (5، 6)، ص 33 .

تحدث مقالته الأولى "الله .. الله يا دنيا" عن هير⁽¹⁾ أخذه الكاتب من جاره هدية، وفي البداية قدّم له وصفاً ظريفاً فيه كثير من المبالغة والفكاهة، وتحدث عنه كأنما يتحدث عن شخص، ثم تحدث عن طعامه، وأخلاقه، التي تغيرت بعد ذلك، وأصابه الهزال، واتضح أن السبب كان نتيجة هيامه بهرة جميلة، ثم ترك منزل الكاتب ليعيش في منزل الهرة الأرستقراطي⁽¹⁾.

وفي المقالة الثانية "ملايين تضمحل كالدخان" - في كثير من المبالغة والظرف - تتكلم عن رجل نسيب الكاتب، الذي زاره في محله التجاري، وأشار عليه أن يقوم بتقويم بضاعته ليعرف مدى ربحه وخسارته، ففعل الكاتب وأحضر محاسباً صديقاً له كي يقوم بالمهمة، وكانت النتيجة أن ربح محل الكاتب في سنته الأولى - مع صغره - ثلاثة ملايين وستمائة ألف ريال، وبعد أن كاد الكاتب أن يصدق الأمر - وهذا مبالغة - سأله نسيبه: أين تلك النقود إذن؟ عندها طلب من نسيبه أن يقوم هو بعملية التقويم، مع العلم أنه لم يكن حاصلاً على شهادة في الحساب، ففعل، والنتيجة أن أرباح المحل هي أربعمائة وخمسون ريالاً، وتبين المحاسب المتخصص خطأه.

وقد بين الكاتب مقصوده من المقالة في هامشها: أن العلوم التطبيقية أفضل من العلوم النظرية.

وفي موقف حوار غلب عليه التفكه والسخرية، يقدم الكاتب مقالته القصصية "تجديد في الأمثال": حوار دار بينه وبين صديق له أراد أن يجدد في الأمثال العربية، كأن يقول مثلاً: "لا سيارة لي في الأمر ولا دراجة" بدلاً من "لا ناقة لي فيها ولا جمل" لتواكب العصر...

(1) أي في منزل من منازل الطبقة العليا في المجتمع.

كذلك في موقف حوارى آخر - بين الكاتب وشخص آخر سأله: ما فلان يحمل عليك حملة شعواء؟ - تأتي قصته "فلسفة جديدة"، لكن يختلف الحوار فيها عن سابقه، لما يغلب عليه من طابع التأمل، ويلاحظ عليها أن الكاتب قد اختار اللفظ والتعبير السهل المتداول كقوله: (ليست فلسفة ولا ما يحزنون - يحرق بنزين دماغه - لا نقصف عمر صاحبه)، وامتازت بهدوء العاطفة الذي يشيع لونا من الراحة والسعادة الخفية، كما امتازت بروعة التصوير .

أما مقالاته: "أزمة الدولار 1" و "أزمة الدولار 2": الأولى تتحدث وتسرد حكاية حدثت لصديقه أثناء سفره إلى بلده، وكيف أوقف راكب السيارة أكثر من مرة لاختلافه مع السائق على الأجرة، وقد قرر المغزى المأخوذ من سرده للحكاية: وهو أن يجب وضع لائحة في "الباص" مصدق عليها من الدوائر المسئولة، تحدد أسعار السفر بين مراحل الطريق .

أما الثانية: فهي حكاية خط من خطوط المواصلات الداخلية في دمشق يتوقف عن العمل الساعة الخامسة من مساء كل يوم فتتعطل المصالح، ويعاني الذين يريدون الوصول إلى آخر المحطة ما يعانون بسبب هذا القرار الغريب من الشركة التي تتولى نقل الركاب، يقابل الكاتب أحد الركاب ليجري معه حواراً .

لقد اتسعت المقالة بمرونتها لأن يورد كاتبها قصة في سياق مقالته ليستميل بها قارئه، ويستعين بها على توضيح فكرته وبيان هدفه، ولم يقف اتساعها إلى هذا الحد، ولكن اتسعت لتكون المقالة هي نفسها قصة، وهي ما تسمى بالمقالة القصصية التي من سماتها اتساع أفق خيال صاحبها، وقدرته على الفكاهة من خلال حادثة صغيرة لكنها تنتزع ضحكاتها .

ويشعرنا أسلوبه فيها بأنه قريب من الحدث تمامًا، وأنه سهل الفهم بسيط التركيب، معتمدًا على بعض المبالغة والتهويل، كرسمه لتلك الصورة الكاريكاتيرية الساخرة لأبي البيانات، والهزء، هذه المبالغة التي تسقط القصة وتخرجها من فلك القصص الفني لتجعلها من المقالة القصصية، لأن القصة تعتمد على الواقعية لا المبالغة والفكاهة، كذلك يقرر الكاتب معنى أو مغزى قصته ويظهره لنا، ولا يخفي خطابه المباشر للقارئ في تلك القصص، ومصاحبته له على صفحاتها، وهذا أيضًا يذري بالقصة لتصبح مقالة.

* * *

إلا أن هناك شكلاً وقالبا ثالثاً لبعض مقالاته الشخصية - لا يستخدمه كثيراً: بأن يعرض أفكاره وعواطفه من خلال رسالة يبعثها لشخص ما، كمقالته "كتاب مفتوح إلى فلان"⁽¹⁾، يوجهها إلى "فلان" ويقصد بها الإنسان: حسناته وسيئاته، ويتعجب من جمعه النقيضين، وتشيع فيها نغمة السخط والنقمة، وإن كان قد اعتذر عنها في نهاية مقالته، لأنه أيضًا إنسان. وتختلف هذه المقالة عن غيرها حيث يكتنفها الغموض في فكرتها، فلم يؤثر الكاتب المعنى المباشر، وإن كان يعتذر عنه بأنها لون من الثثرة الشخصية والبوح النفسي.

ومن هذا القالب أيضًا مقالته "أسرع أيها السائق"⁽²⁾، فقد اتخذت المقالة شكل الرسالة ليصب الكاتب من خلالها خوالج نفسه ولواعج أساها التي أثارها رسالة وصلته من دمشق المغترب عنها جسمًا فقط.

* * *

(1) إلياس قنصل: هنا وهناك، ص 45.

(2) السابق: ص 119.

خلاصة أسلوبه في مقالاته الشخصية:

اعتمد الكاتب على عرض تجاربه خلال رحلة حياته، واجتُر فيها مخزون ذكرياته الذي حصّله عبر السنين، واتسعت هذه المقالة لتعرض آماله وآراءه الخاصة وآلامه وثرثراته ومسامراته، في جو من الكياسة والفكهاة وخفة الظل التي تؤثر في قارئه وتشده إليه. (1)

وجعل نفسه لقارئه مثلاً يحتذى، وصديقاً في خطابه إليه ومحاوراته له، لا معلماً أو واعظاً، ولا يتعالى عليه، لأجل ذلك قد يوجه لقارئه بعض التهم التي لا يخلو الكاتب نفسه منها، بأنه ثقیل الدم مثلاً، أو قليل الذكاء، أو يتهمه بالبلاهة - لا يقصد فيها إهانة نفسه وقارئه بقدر ما تكون تبسطاً معه في الحديث، ومداعبة لقارئه، بظرف لا يثيره. أو يخاطبه بقوله "يا صديقي القارئ".

كل ذلك يحمل قارئه على الاقتناع برأيه مهما كان، حتى لو فضل إليه البلاهة، أو حجب إليه ثقاله الدم، وجلالة الوجه، في أوقات معينة ...

معتمداً على كل من خلال لغة بسيطة متدفقة، وتعابير لا تعقيد فيها أو غموض، تشع بالعاطفة، وتكثر بها الصور الحية النابضة التي تمتزج بالمبالغة أحياناً، مستخدماً الحوار، والقص كثيراً، "فالسمة القصصية تشكل ضرباً من التنوع في قالب المقال، وهي وسيلة للسيطرة على القارئ، اعتماداً على ما تكون قد استعارته المقالة من طابع القصة الذي يمتاز بخاصية التشويق والسيطرة" (2)

(1) د/ محمود شريف: فن المقالة، ص 139، "بتصرف".

(2) د/ محمد أبو الأنوار: مصطفى لطفي المنفلوطي، ص 300.

2- المقالة الاجتماعية:

تقوم المقالة الاجتماعية على نقد العادات السيئة المترسبة في مجتمع ما، هذه العادات التي تعوق مسيرة تقدمه. كما تقوم على نقد ما يستحدث من بدع وعادات مما له تأثيره السلبي على هذا المجتمع .

فالمبرر الطبيعي لذيوع مثل هذا النوع من المقالات في مجتمع ما هو ما يطرأ عليه من مستحدثات الحضارة في الأزياء والعادات والأخلاق ووسائل اللهو والتسلية، أو ما يحدث فيه عادة من صراع بين القديم والجديد، في فترات الانتقال⁽¹⁾

ولم يكن الأديب بمعزل عن مجتمعه، بل كان يشاركه قضايا ومشاكله، ويحاول معالجتها بوجدانه الصادق وشعوره الجماعي. لذلك كان هذا اللون أبعد أثراً في نفوس المتلقين .

وعدة الكاتب في مقالاته الاجتماعية ملاحظة دقيقة، وقدرة على إحكام الوصف، وإجادة التحليل، واتزان حكمه، وعمق تأمله، وبراعته في تهكمه وسخريته، حتى تكون مقالته حية تستأثر قارئها وتؤثر فيه.⁽²⁾

كتب إلياس قنصل في مهاجره مقالات اجتماعية - وإن كانت ليست من الكثرة بمكان مقارنة بمقالاته الشخصية أو السياسية من المقالات الأدبية، وذلك لبعده عن موطنه الذي جهل كثيراً من عاداته لأنه رحل عنه صغيراً، كما كان همّه الأكبر هو تحرر موطنه من ربة الاستعمار.

(1) د/ محمد يوسف نجم: فن المقالة، ص 107 .

(2) السابق: ص 108.

لذا جاءت مقالاته الاجتماعية في البداية قليلة وملونة بأسلوبه الذي استخدمه في مقالاته الشخصية، وخير ما يمثلها مقالته: "الشوارب واللحي" (1).

يبحث فيها "عادات لنا كانت فينا - منذ القدم - رمز القوة، وعنوان الشهامة، تركناها وتعلقنا بأذيال غيرها من عادات الغرب المتأثرة المتخنة، مثل حلق الشارب واللحية وتطرية الخد واقتلاع زغب الوجه، وما إلى ذلك، حتى بدا صاحبها (الرجل) على مسرح (الرجولة) وكأنه غادة حسناء في لينها وانعطافها وتكسرهما"، فيؤفّق في بحثه إلى حد بعيد.

بدأ مقالته بمقدمة موجزة، يقول: "يكاد تاريخ اللحي والشوارب ينطوي على تاريخ الإنسانية مختصراً". ثم أخذت المقالة تتسلسل انطلاقاً من مقدمته حتى يصل إلى الأصل - العرض - وهو أن دور الشوارب واللحي - وهي علامة الرجولة - أخذ يتضاءل تقليداً للغرب في محاكاة رجالهم بنسائهم والعكس.

ويختم مقالته بقوله: "لو أمسكت رأس رجل ورأس امرأة وسترتهما بقي من الجسمين لما تمكن في تمييزهما سوى العبقرى الموفق". ثم يجيب على من سأل: ما حالة وجهك؟ قائلاً: "لست من الإصلاح بحيث أرخي لحيتي وشاربي بين ألف مليون من المخلوقات الحليقة، فأغدوا محط العيون الهازئة، ولقم الألسن الخبيثة... إن الأعور بين العميان صاحب عاهة، وعاهته عينة البصيرة. فإن وجدت الآن رفيقاً واحداً على الأقل يعاهدني على أن يرسل

(1) المواهب: السنة الأولى، 1945م، عدد 7، ص 117 'بتصرف'

لحيته وشاربه، إن وجدت هذا الرفيق كسرت شفرات الحلاقة التي عندي، و ... اشتريت غيرها أفضل منها".

إذا بحثت عن عاطفته، وجدته ناقماً أشد ما تكون النعمة في نقده لهذه العادة السيئة، وإن كانت مغلفة بأسلوبه في السخرية والفكاهة، منطلقاً من نفسه المخلصة لأبناء جنسه الشرقيين.

وقد استخدم الحجة الواضحة والمنطق السليم، كل ذلك في قالب من التعابير السهلة والصور الخيالية، كتصويره - مثلاً - للشوارب واللحي في الكلام بالمعاهدات التي يستحيل التملص منها، أو سندات تزلزل الأرض زلزالها قبل أن يتغير حرف منها، أو كتصويره لنفسه بالأعور بين العميان إذا أطلق لحيته بين الخلائق الخليفة.

مستخدمًا المحسنات في غير تكلف كالمقابلة لإبراز المعنى، مثل: "نقلدهم وننسى أن أرضنا أطلعت المسيح الذي لقن المرء مبادئ الرحمة والمحبة والتساهل، وأفهمه أنه مخلوق على صورة الله ومثاله. وأن أرضهم - أرض الغرب - أطلعت نيرون الذي أحرق مدينة برمتها بمشهد اللهب".
نقلدهم وننسى أن بلادنا أنجبت محمداً الذي حمل مشاعل الحق والعدالة فبدد به ضلال النفوس. وأن بلادهم - بلاد الغرب - أنجبت دروين الذي قال: إن الإنسان والقرد من فصيلة واحدة!"

* * *

ثم سافر إلى وطنه سورية بعد تحرره من الاستعمار وخالط الناس فيه، هذا المجتمع الحق الذي كم دعى إلى تحرره العسكري، فلا مندوحة إلى تحرره الفكري والمادي، تحرره من عاداته القديمة التي تعوق مسيرة تقدمه في ركب

الحضارة، وتحرره من الصفات المرذولة والبدع المفسدة، من عدو فشل في السيطرة عليه عسكرياً فلا سبيل إليه إلا بالسيطرة على عقله وفكره وتقدمه .
وبنفس صادقة متفائلة حاول "إلياس" علاج أدواء مجتمعه العربي بمقالات اجتماعية تختلف بأسلوبها عن مقالاته الاجتماعية السابقة في المهاجر:

ففي مقالته "حسنت العصر الحاضر" ⁽¹⁾ : نظر إلى هذا العصر الحاضر - الذي يعيشه وطنه الآن - نظرة تفاؤلية، وأن سيئاته أقل من سيئات العصور الماضية وحسناته أوفر .

ويحاول أن يقنع قارئه بالفكرة مستخدماً ضرب الأمثلة وأسلوبه السهل في التعبير بأدلة واضحة - وهذا شأنه .

ويرى في مقالته "التشاؤم" ⁽²⁾ أن التشاؤم من الأسباب التي تضعف المجتمع وتهدمه .

كما يرى أن الحياة فن - في مقالته "الحياة فن" ⁽³⁾ - فعلى الإنسان إذا واجهته مصائب الحياة ومصاعبها أن يتفاءل، فالتفاؤل يتلافها أو يخفف منها، بخلاف تشاؤمه أمامها.

ولم يكن التشاؤم الذي ساد مجتمعه هو العادة أو الخلق الوحيد المنتشر فيه، بل وجد أمته تعيش بعقلية الجليل الماضي، وإن كانت تستخدم أحدث

(1) إلياس قنصل: هنا وهناك، ص 7.

(2) السابق: ص 29.

(3) السابق: ص 13.

مبتكرات العصر الحاضر، فيطلب منها أن ترقى عقلياً لا مادياً فقط، في مقالته "عقلية الجيل الماضي" (1).

ويسخط أشد ما يكون - في مقالته "إقطاعية الأسماء" (2) على من يعيشون عالة على أمجاد آبائهم وأجدادهم، مَنْ يرون أنفسهم أحق الناس بأن يتسلموا مقدرات البلاد، لأنهم يحملون كنية معروفة أو لقباً مشهوراً دونما كفاءة.

ومن العادات الراسخة في المجتمع العربي والتي قد تقوض أركانه: احتقار الناس لمن دونهم مهنة، فيرى أن أي مهنة وإن كانت وضيعة في نظرهم، جديرة بالاحترام لأنها على كثير من الأهمية، فيعالج ذلك من خلال مقالته: "ماسح الأحذية" (3).

وكذلك هؤلاء الأطفال الذين هم فلذات أكباد آبائهم في المنزل، يُقدّم لهم الغالي والرخيص، وبمجرد أن يخرجوا إلى السوق لا يكونون إلا محط ازدراء وإهمال وانتهاز من الآخرين، فينشأ الطفل على الخوف، والنقمة على الإنسانية للانتهارات التي يتعرض لها من الآخرين، في مقالته: "الأطفال في العالم العربي" (4).

أو يدعو في مقالته "أسبوع للذوق" (5) إلى ترك جزء ضئيل من الحق الشخصي لصالح الآخرين في هذا الأسبوع، فمثلاً صاحب السيارة يهدد

(1) السابق ص 43.

(2) السابق ص 41.

(3) السابق: ص 11.

(4) السابق: ص 50.

(5) السابق: ص 15.

المارة بالدهس من سرعته، أو صاحب المنكب الذي يدفعهم بمنكبه، أو ولد الدكانة الذي يملأ وجوههم بالغبار دون اكتراث عليهم أن يتركوا حقهم هذا ولو في أسبوع واحد، يسمى "أسبوع للذوق".

* * *

ولنأخذ مثلاً من مقالاته الاجتماعية لتستنبط منها أسلوبه فيها: مقالة "ماسح الأحذية"⁽¹⁾، يقول فيها:

"لا يا سيدي لست مصيباً في احتقارك هذا الرجل لأنه يحترف مسح الأحذية، إنها مهنة كبقية المهن، حين تنظر إلى الوطن، فتراه مجموعة من الأيدي العاملة. أما إذا كنت تنظر إلى الوطن "طبقات بعضها فوق بعض أغناها أجدرها بالاحترام" فذلك شيء آخر، وأنت حر في أن تتبع الطريق الذي يروق لك، ولكن لا تنس أن بعض السبل قد يؤدي إلى التهلكة من حيث يدري سالكها أو لا يدري.

لا - يا سيدي - إن هذا الرجل - مساح الأحذية - جدير بالاحترام أو التقدير ما دام رجلاً عاملاً شريفاً يكدح ليربح قوت يومه بعرق جبينه، ويتقيد بالقوانين والأنظمة.

إن هذا الرجل الذي تلقي عليه نظرة امتهان واحتقار قد يقف - حين يدعو صوت الواجب - موقفاً عزيزاً يسجل له بمداد الثناء. إن هذا الرجل قد يبذل دمه في سبيل غيره.

عليك يا سيدي، أن تحترم هذا الرجل - ماسح الأحذية - فإن كنت تعتبر حرفته حقيرة فإن واجبك أن تقدر تضحيته لأنه رضي بها. ومن يعلم

(1) السابق: ص 11

فقد يكون لهذا الرجل أطفال يعيشون من عمله، أطفال صغار ينتظرونه في آخر النهار بشوق ولهفة وحنين، كما ينتظر بقية الأطفال آباءهم سواء كانوا مديري مصارف أو رؤساء دوائر أو أصحاب متاجر. وبعد - يا سيدي الفاضل - إنني ألقى نظرة خاطفة على حذائك فأراه نظيفاً لماعاً أنيقاً. فإن كنت أنت الذي مسحته بيدك الطاهرة ونظفته ولمعته، فإنك قد ساويت ماسح الأحذية الذي تمتهنه، وعملت نفس العمل الذي تحتقره من أجله.

وإن كان ماسح الأحذية هو الذي تولى تنظيفه - تنظيف حذائك ومسحه وتلميعه - فالمعنى إنك محتاج إلى ماسح الأحذية ولا يمكنك الاستغناء عنه.

واعذرني يا سيدي على إزعاج خاطرك الكريم، وحذائك النبيل ... ". ترى أن موضوع المقالة طريف، حيث يدافع عن ماسح أحذية، وأنه جدير بالاحترام. ويبدأ مقالته بالعرض مباشرة دون مقدمات، ويحاول أن يبرهن على خطأ من ينظر إليه باحتقار، وذلك بحجج ناصعة قوية، لا تحتاج إلى إمعان النظر وإشغال عقل القارئ كثيراً، تنتهي بالقارئ إلى التسليم عن طيب خاطر بأهمية ماسح الأحذية، وأنه جدير بالاحترام لكونك ماسح لحذائك فلا تحتقره، أو أنك تحتاجه لمسحه فتعرف أهميته فلا تستغني عنه.

وتشيع في المقالة النعمة الخفيفة من داخل عاطفته الهادئة التي توارت ليحل محلها الفكر الذي اتخذ بساطة الألفاظ والتعبير المباشر سبيلاً له، لذلك ندرت الصور، والمحسنات اللفظية.

فالمقالة الاجتماعية ينبغي أن تميل إلى السهولة والواقعية، والوضوح، وإبانة الفكرة، والابتعاد عن الخيال، وعن التنعيم، وإلى مجافة الغريب،

والوحشي، والسعي خلف المعنى الجماهيري الذي يصلح شأنًا أو مجلي رأيًا⁽¹⁾.

بمعنى البعد عن التفنن في العرض، وتحييد الاقتراب بالقضية من الوضوح والمباشرة لكي تكون قريبة من أذهان العامة وأفهامهم .
وكما ترى - قد وفق الكاتب في مقالته "ماسح الأحذية" التي تدل على غيرها من مقالاته الاجتماعية، مستخدمًا هذا الأسلوب في العرض .

3- المقالة السياسية:

أعني بها هذا اللون من المقالات الذي يعبر تعبيرًا مباشرًا عن أحاسيس الكتاب ومشاعرهم تجاه وطنهم، والتي تلهب في الوقت ذاته حماسة الشعب، وتحرك فيه الروح الوطنية، فيثور في وجه المستعمر الغاشم الذي يجثم فوق صدره. تلك هي ما تسمى أحيانًا (بالمقالة الوطنية)⁽²⁾ .
وقد كان إلياس واحدًا من هؤلاء الكتاب، والذي كانت بلاده سورية تحت سيطرة الاستعمار، وما كان عليه إلا أن يؤدي واجبه المقدس نحو وطنه - حتى وإن كان في بلاد الغرب - فكرس فكره وقلمه لتحريره فجاء معظم نتاجه الأدبي وطنيًا، منه مقالاته التي تدافع عن وطنه في وجه المستعمر، أو التي تظهر للشعب مساوئ الاستعمار وأعوانه الخونة، مدفوعًا بحبه لوطنه وإخلاصه له.

(1) د/ عبد اللطيف الحديدي: فن المقالة في ضوء النقد الأدبي، ص 31 بتصرف .

(2) السابق: ص 35 .

ففي مقالته "أشرف الرسائل" ⁽¹⁾ : يرى أن أشرف الرسائل عند الأديب هي الرسالة الوطنية والدفاع عن الوطن، لأن الوطن جزء من الإنسانية، وإذا كانوا قد أحبوا الإنسانية فليبدءوا بالوطن وحبه والدفاع عنه، حتى يكتمل حبهم لها، لا كما يطلب البعض بأن يكون الأديب إنسانياً لا يتعلق بعصبيات بكتابته في القوميات.

ويرى في مقالته "مقدمة ديوان السهام" ⁽²⁾ : أن على الأديب بقلمه واجباً نحو وطنه ؛ بأن يحارب العصابة الغاصبة الواهنة، وإخوانهم المتفرنجين، وتلك النفوس الواهنة.

ويتحدث عن الجهاد الوطني في المهاجر، على حين يراه البعض أنه لا تأثير له — كما يدعي المتوانون عنه — إلا أنه واجب على كل ذي فؤاد أبيّ شريف في مقالته "جهادنا في بلاد الغربية" ⁽³⁾.

ويرى في مقالته "نحن أولى" ⁽⁴⁾ أن ليس على الكاتب أن يكتب بلغة أجنبية، ليعرف أهلها مآثر العرب — كما طُلب منه — لكن عليه أن ينبه العرب أنفسهم إلى حالهم السيئ، وعلى احترام أنفسهم قبل أن يحترمها الغريب، فنحن أولى.

فقد ساد أننا أمة متخلفة عن ركب الحضارة، لا يرجى علاج لضعفها، وصدق القائل كذبت، وجرينا نحن عليها، دون التبين من صدقها أو كذبها،

(1) إلياس قنصل: هنا وهناك، ص 140.

(2) السابق: ص 113.

(3) السابق: ص 124.

(4) السابق: ص 126.

مثل جحا الذي أراد أن يصرف عنه الصبيان فأطلق عليهم كذبة المأدبة، ثم صدقها، ثم ركض وراءهم. (1)

لذلك أخذ يصبُّ حممه المنصهرة من صدق عاطفته الوطنية على أعداء الوطن الذين يحسبون أنفسهم أصدقاءه، ويرى ألا نتسامح معهم، فالتسامح معهم خيانة، وعلى الوطن وأبنائه محاربتهم، حتى يكتب لنا النصر المبين (2). وفي المعركة مع أعداء وطنه، يجد من أبناء جنسه من يقول: "نحن على الحياذ واقفون فاطمئنوا، وجاهدوا ضد عدوكم، فلن تجدوا منا ما يسوؤكم"، فيتصدى لهم في مقالته "نخاف غدركم" (3) ويرى أن العدو قد أمن منهم بجيادهم لا نحن، فنحن نخاف غدرهم، وإذا كانوا صادقين في حيادهم فكيف تطيب لهم الحياة وإخوانهم يبذلون ما يبذلون في سبيل المجموع، ولا يتحرك لهم ساكن.

وفي مقاومته للاستعمار وأعوانه الخونة - من مهاجرة - لم ينس نصيب اليهود من ذلك، فيهددهم ويتوعددهم بأنهم لن يستطيعوا بعد أن تزول دولتهم - وهي متداعية ولا شك - أن يهربوا من غضبة العرب، بعد أن وجد الإقناع ومحاولة الإثبات بالمنطق لا يفيد، وأخذ يذكرهم بحوادث لهم مخزية من قبل، وذلك في مقالته "أكبر مذبة في التاريخ ستجري في فلسطين" (4).

(1) السابق: مقالة "جحا ونحن"، ص 135.

(2) السابق: مقالة "حتى يكتب لنا النصر المبين"، ص 132.

(3) السابق: ص 129.

(4) المواهب: السنة الثالثة، 1947م، عدد 6، ص 6.

وبعد أن عرضتُ فكرة بعض مقالاته السياسية - التي كتبها من مهاجره وقت الاحتلال - سأخذ نموذجاً منها، لأبين طريقة معالجته لها، مقالته "نخاف غدركم" ⁽¹⁾، يقول فيها:

"قالوا: نحن على الحياد واقفون، فاطمئنوا، جابهوا العدو الذي تريدون فلن تجدوا منا ما يسوؤكم واشكرونا، فلو كنا غيرنا ...

فقلنا: إن حيادكم أذل من الحرب التي بها تهددون، ونحن نؤثركم في صفوف أعدائنا على أن تكونوا مترجرين لا إلى اليسار ولا إلى اليمين، حيادكم عار وسوء نية، فالذين نحاربهم يضمرون لنا الشر ولكم، ويتربصون بنا الفناء وبكم، واعتزالكم يحملنا على توجيه قسم من انتباهنا إلى مراقبتكم، فنحن - وأنتم كما أنتم - نخافكم - وإن كنتم من أبناء بلادنا - كما نخاف فئة غريبة تود لأمتنا الانكسار.

نخافكم، نخاف غدركم، لا شجاعتكم
ونكره هذه "اللامبالاة" التي بها تعتزون كما يعتز المجرم اللئيم بما ارتكب من موبقات، وليس بين حيادكم وبين انقلابكم علينا غير خطوة أخرى في طريق الضلال التي تسلكون
والذي يعاين أخاه يصارع وحشاً كاسراً، فيبتعد ليتفرج راضياً، غير مستبعد عليه أن يساعد الحيوان على أخيه.

ثم .. ما معنى حيادكم ؟

ما معناه في لغة الواقع ؟

لقد تصفحنا معجم الشرف فلم يكن له ذكر

(1) إلياس قنصل: هنا وهناك، ص 129

إن المعركة التي نخوض غمراتها هي حدٌ بين موت وحياة، هي معركة الأمة جمعاء.

وحضراتكم أنصار أولياء لمن يتمنى لنا الموت الزؤام، إن أعداءنا أمنوا جانبكم - لا نحن.

وما دمتم قد وفرتم عليهم الحذر منكم فأنتم حلفاء، بل أنتم أشد نكاية، فقد عرفنا معيار السلاح الذي يتحتم تجهيزه لصدّهم، ودرسنا خدعهم الحربية السياسية، ولكننا لا ندري ما يجب أن نعدّه لكم، لأن قواكم السلبية مخبوءة في مستنقعات نفوسكم، ولا نعلم أهى سطحية أم عميقة؟! فقد حجبتهأ طباعكم المنكرة بطبقة من الدرن لا تنفذ العين إلى طواياها.

وهبوا أنكم في حديثكم صادقون - فكيف يطيب لكم أن تشاهدوا إخوانا يبذلون ما يبذلون في سبيل المجموع، ولا تحركون ساكناً، ولا تشاركون؟ كيف يروق لكم أن تستغلوا ثمرات هذه الأتعاب متى انتصرت قضيتنا تمام النصر، ونحن - وأنوفكم في الرغام - ياذن الحق منتصرون؟

إن المضمّار لا يزال فسيحاً للتعويض عن هذا الشعور الأناني البئيس . والمنهج واضح المعالم، فاتبعوا صوت الضمير الحي فالمرء بضميره إنسان.

إننا في عهد يعتبر الفتور في الجهاد جريمة لا تغتفر، فما بالكم بانعدامه ؟ لا حياد في هذه الجولة. إما معنا وإما علينا. فحددوا موقفكم.

الفكرة في المقالة - وقد ذكرتها من قبل - ظاهرة، لا لبس فيها ولا غموض، وقد وفق الكاتب في تلك الفكرة ومعالجتها.

بدأ الكاتب مقالته "بمقدمة" واضحة متصلة بالموضوع - الذي جاء ملائماً للوضع القائم - هي قولهم: "نحن على الحياد واقفون، فاطمئنوا،

جابهوا العدو الذي تريدون فلن تجدوا منا ما يسوؤكم واشكرونا، فلو كنا
غيرنا ...

ثم جاء "عرض" المقالة ردًا على هؤلاء، وقد التزم فيه طريقة التهويل
والتخويف من حيادهم مع الأعداء، وكيف أن هذا أشد من الصداقة
والتحالف معهم.

يعرض ويناقش دون ضرب الأمثلة التي يقتبسها من تجاربه أو ثقافته
العامة في الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع.

وإن كان قد وفق في مناقشته، حيث كان للعاطفة أثرها في ذلك، فقد
جاءت كل كلمة وكأنها دليل عليها، هذه العاطفة التي اتخذت الأسلوب
الخطابي لونا لها، مدفوعة من حماسها الوطني ونقمتها على هؤلاء الخونة،
الذين لا يجوز التحدث معهم بلهجة هادئة، كيف يجوز وهم من أبناء
جنسنا؟! من يخدعنا بحياده - الذي ظاهره الرحمة وباطنه العذاب - في حربنا
مع عدونا وعدوه؟! فأخذ يصب غضبه عليهم، فلم يحتج إلى أدلة وبراهين
ليناقضهم بها، أو لتظهر خيانتهم.

وقد تميزت تلك المقالات بما امتازت به هذه المقالة، من حماسة في
العرض، وتأجج في العاطفة، والخطابية أحيانا، التي مصدرها الصدق الوطني،
والرغبة في التخلص من الاستعمار وأتباعه، خاصة مقالته "أكبر مذبة في
التاريخ ستجري في فلسطين" والتي يوجه خطابه فيها إلى اليهود، ومقالته "حتى
يكتب لنا النصر المبين"، حيث يخاطب أعداء الوطن ويصب عليهم جام
غضبه، ويرى ألا نتسامح معهم. يغضب - لأننا أمة غاضبة حتى تعود لنا

حقوقنا وتحقق راية العروبة من جديد - في مقالته "نحن أمة غاضبة" (1) ويرد على صاحبه بلهجة شديدة - وهو يعي هذا - عندما طلب منه أن يكتب ما يكتب بلغة أجنبية في مقالته "نحن أولى".

وتقل نغمة السخط والحماسية في بعض مقالاته تلك، بأن يناقش ويعرض في هدوء أثناء معالجته للموضوع، كمقالاته: "جحا ونحن" و"أشرف الرسائل" و"جهادنا في بلاد الغرب".

وقد جاءت المعالجة قاصرة وسطحية في مقالتيه: "جحا ونحن" و"جهادنا في بلاد الغرب"، لقلة الاستدلال بضرب الأمثلة، أو الحجج القوية، أو حتى بحماسة الشديدة التي قد تغني عنهما، وإن كان قد استخدم طريقة المقارنة في المقالة الأولى منهما، عندما قارن بين المخترعين الأجانب في الغرب وبين وجود محمد - صلى الله عليه وسلم - والمسيح عيسى في العرب.

ولم تخل بعض مقالاته من الاستشهاد وضرب الأمثلة، ففي مقالته "مقدمة ديوان السهام": يمثل من التاريخ على عظمة الأمة الضعيفة إذا توحدت منازعها واعتمدت على حقها، ضد القوة المسيطرة: "إن (البلاد الفضية) لم تكن أقوى من (إسبانيا) لما نالت حريتها، ولا تزال (البرازيل) ممنوع من (البرتغال) عندما اعلولت في أرجائها العبارة الخالدة "الاستقلال أو الموت"، ولا (الولايات المتحدة) أشد بأساً من (انكلترا) حين جلستها عن أراضيها." (2)

(1) إلياس قنصل: هنا وهناك و ص 137

(2) السابق: ص 114

ويمثل - في المقالة نفسها - ردًا على من يطلب منه تقليد الشعراء الغربيين في ارتشافهم من معين الجمال والحب - بأن منهم من جاهد بشعره من أجل وطنه، فيقول: "تحروا مغلفات الماضي القريب وسجلات الحاضر الذي به تنعمون - إذا شئتم، هذا "كورنيه" شاعر الفرنسيين ما برحت أمته تعترف بفضلها في استبسال جنودها وانتصاراتهم، وهذا "بيكر" شاعر الألمان ما زال قومه يقدرون له إذكاء خوالجهم الوطنية في الملومات، بل هذا "بيرون" اللورد أنبغ شعراء بريطانيا، ألم يبعث في اليونان ثورة المطالبة بالحرية؟" (1)

وإذا بحثت عن الصياغة في المقالة:

تجد أن السهولة في الألفاظ، والمباشرة في التعابير - بلا ابتذال - والمعاني الظاهرة الجلية، هي السمة الغالبة في مقالاته السياسية، وإذا صح التعبير: في معظم مقالاته على الإطلاق.

هذه البساطة، والبعد عن التعرُّع في الألفاظ والأساليب يتمكن بها الكاتب من إيصال فكرته إلى سائر طبقات الشعب مهما تفاوتت ثقافتهم. (2)

وجاء كلامه - في المقالة - مرسلاً، به قليل من الموسيقى في غير تصنع، فيستخدم السجع بتكراره كاف الخطاب الجمعي، مع الموازنة قليلاً: "يضمرون لنا الشر ولكم، ويتربصون بنا الفناء وبكم"، وقوله "إما معنا، وإما علينا".

ويستخدم التكرار اللفظي، فيكرر كلمة "نخاف" أربع مرات، ولم تخل مقالاته الأخرى من هذا التكرار؛ فيكرر مثلاً "إنَّ والضمير" "إننا" أو الضمير

(1) السابق: ص 117

(2) د/ عبد اللطيف الحديدي: فن المقالة في ضوء النقد الأدبي، ص 38 "بتصرف"

نحن " في مقالته "نحن أمة غاضبة"، كما أنه استخدم التكرار في المعنى والترادف كقوله فيها: "نحن أمة غاضبة حتى تعود لنا حقوقنا، نحن شعب حائق حتى تعترف الدنيا بما نطالب به من عدالة، نحن مجموع حاقد حتى تحقق من جديد راية العروبة حيث كانت تحقق.."(1)

ويستخدم التضاد في المقالة مثل: "اليسار واليمين"، "الموت والحياة"، "سطحية وعميقة" ليرز المعنى ويوضحه، كما يعطي موسيقا داخلية لمقالته. والمقابلة والتضاد قلما تخلو منها باقي المقالات.

وإذا جاء دور التصوير، أجد أن مقالاته السياسية تشتمل عليه بشتى ألوانها، ولكن يختلف حظ كل مقالة منه بين الكثرة والقلّة، فعلى سبيل المثال: يكثر في مقالته "حتى يكتب لنا النصر المبين"، و"مقدمة ديوان السهام"، ويقل في مقالته "جهادنا في بلاد الغرب" و"نحن أولى".

وتأتى صوره بسيطة غير معقدة، كصورته في مقالته "أشرف الرسالات": "أما أن نحب الإنسانية ونترك وطننا - وهو يعاني ما يعاني فشيه بأن يغادر والد ابنه على سرير المرض الويل، ثم يتحول إلى الخوانيت بحثاً عن لعبة جديدة يقدمها إلى ابن جاره الناعم بالعافية، المحفوف بقبلات والديه وحنوهما"(2)، وقد جاءت الصورة جديدة بارعة. وتصويره أيضاً لبعض الأجانب الذين اتهموا الأمة العربية بالتخلف ثم صدقوها، بجحا والصبيان عندما أطلق عليهم كذبة المأدبة ثم صدقها وركض وراءهم، في مقالته "حجا ونحن".

(1) إلياس قنصل: هنا وهناك: ص 139.

(2) السابق: ص 141.

أما التصوير في المقالة التي بين أيدينا، فقد جاء كثيراً: فتجده عندما يصور أبناء جنسه في حالة اللامبالاة التي يعتزون بها بالجرم اللئيم الذي يعتز بما ارتكب من موبقات، أو تصويره للعدو بالوحش الكاسر والشعب بالفريسة عندما يقول: "والذي يعاين أخاه يصارع وحشاً كاسراً فيبتعد عنه ليتفرج راضياً، غير مستبعد عليه أن يساعد الحيوان على أخيه"، أو يصور نفوس الخائنين بالمستنقعات التي غطتها طباعهم بطبقة من الدرن لا تنفذ العين إلى طواياها. واستخدم الكناية في: "أنوفهم في الرغام"، كناية عن مذلتهم.

* * *

وتتحرر البلاد من أيدي المحتل الغاصب سنة 1946 م. وفي الوقت الذي يسعد فيه "إلياس" - كما سعد مواطنيه - بذلك، يخاف حرصاً على هذا الاستقلال والتحرر من كيد المستعمر، ومن مخططاته الخبيثة . فيكتب من مهاجره مقالته "هذه سورية في ميدان الشرف القومي فأين هي من مضمار الحرية المادية؟" ⁽¹⁾: يحذر فيها سورية الحرة من الوقوع في شباك شركات الأجانب الاستثمارية التي كانت ولا تزال الحجر الأساسي يشيد عليها الاستعمار الخبيث قواعده.

ثم يدعو السوريين المهاجرين بالخارج أن يستثمروا أموالهم الطائلة في بلادهم وينقذوها من براثن الشركات الأجنبية الغادرة. وقد جاءت ألفاظه سهلة واضحة ومعبرة، إلا أن صوره قد جاءت قليلة في المقالة؛ كتصويره للاستعمار بالذئاب وأن له جلوداً عديدة يرتدي منها ما

(1) المواهب: السنة الثانية، 1946م، عدد (7، 8)، ص 13.

يناسب الظروف، وقروض الاستعمار المالية بالأظافر الملساء الناعمة التي تنشب في جسم البلاد من حيث لا تدري فتسفك النافع من دمها. وهو بعاطفته الوطنية الصادقة الحريصة على مصلحة الوطن يعرض ويناقش، فيغيب الخيال كثيراً، لأن الوطن إزاء معركة أو أحداث حاسمة يحتاج فيها إلى الفكر المتيقظ الواعي المدفوع بعاطفة صادقة، لا خيال يحجب. نعم علينا أن نتيقظ للاستعمار ونواياه، فيكتب مقالته: "نحن مؤمنون وقد لدغونا مرة"⁽¹⁾، فقد عرفنا نوايا الاستعمار الخبيثة، فلم نعد لنثق به حتى بعد أن تحررنا منه، وحذرنا من عطفه المسمم وأساليبه الاستعمارية المستترة. ويعمد إلى الاستطراد في هذه المقالة، وتكثر فيها الصور، وتشيع عاطفة النعمة والسخط، مستخدماً ألفاظاً سهلة وبسيطة.

* * *

يعود "إلياس قنصل" إلى وطنه الذي عانى من حبه له كثيراً؛ عانى في غربته شوقاً وحنيناً إليه، وعانى حرصاً على استقلاله ودفاعاً عن تحرره. يجد الوقت مناسباً لعودته، يعود ليستمتع بالحرية في وطنه، هذه الحرية التي لم يشعر بها في بلاد الحرية حين كانت بلاده مستعبدة. وقبل كل شيء .. يتخذ مناسبة عودته إلى وطنه، ليتحدث عن مآثر وأجساد وطنه التي طالما اعتز بها ودافع عنها، هذه المآثر هي هدية الوطن إليه إثر عودته، وذلك في مقالته "ما أكرمك أيها الوطن"⁽²⁾.

(1) السابق: السنة الثالثة، 1947م، عدد (2)، ص 19.

(2) إلياس قنصل: هنا وهناك، ص 142.

تذوب ألفاظ المقالة رقة وعدوبة، وجاءت صورها رشيقة وجذابة، قد كتبها بشحنة من عاطفته الجياشة تجاه وطنه إثر عودته إليه، فجاءت قطعة أدبية أشبه بقصيدة شعرية.

وفي مقالته "أمام قبر صلاح الدين" ⁽¹⁾ يقف ليرى قبر صلاح الدين الأيوبي صفحة من التاريخ مرصعة بالأعجاز، ووجوده في دمشق هو تزكية على أنها قلب العروبة النابض، هذا القبر هو الحد الفاصل بين أطماع الغرب اللئيمة وطوية الشرق السليمة.

لم تختلف كثيراً عن السابقة من كونها قطعة أدبية، يستخدم فيها التصوير وتأتي صورة جميلة، كما أتت ألفاظه رقيقة. كما يستخدم الجناس كقوله: "الطغاة البغاة"، والموازنة بين بعض الجمل مع السجع الخفيف، مثل: "كانت الدنيا الغربية تريد أن تقول كلمتها، فقالتها بلسان صلاح الدين، وكانت تود أن تعلن عن عزميتها، فأعلنتها بخلق صلاح الدين، وكانت ترغب في أن تدافع عن سياستها، فدافعت عنها بحسام صلاح الدين".

ويستخدم الترادف، مثل: "... تسوقها البغضاء، ويجهزها الحقد، وتمونها الضغينة"، والمقابلة "بين كذب الغرب المستعمر الذي يتخذ من البسمات قوالبه، وبين صدق المشرق الذي يحمل قلبه على كفه".

وكذلك مقالته "الشهيد" ⁽²⁾ التي تشيع فيها روح الحماسة، والخطابية، يتحدث فيها عن الشهيد الذي قتله رصاص الغدر، وعن الانتقام له، وأنه حي بيننا، والوطن يحفظ ذكراه. وذلك لما قد أثارته في نفسه عودته إلى الوطن

(1) السابق: ص 109.

(2) السابق: ص 111.

من ذكرى هؤلاء الشهداء الذين بذلوا دماءهم على عرفات كرامة هذا الوطن.

يتحدث فيها بعاطفة وطنية صادقة، وألفاظ تشع حزناً على الشهيد، ونقمة على الجناة قاتليه.

وتكثر بها الصور التي جاءت جميلة ومعبرة، فانظر مثلاً إلى الفقرة الأولى منها، يقول فيها: أيها الشهيد ! إن دمك الذي سفكه رصاص الغدر، سينزل قريباً على رءوس الأعداء الجناة حمماً تحرق وجودهم، وأعاصير تذرو كيانهم - هباءً منثوراً - عبرة لقوم يعقلون، لقد انخدع الجناة بعربدتهم، وأعمى الغرور أبصارهم وبصائرهم، فحسبوا هدوءنا ضعفاً، وخالوا اطمئناننا استهتاراً".

يستخدم الموازنة بين الجمل، والسجع والجناس دون تكلف، ويستخدم التضمين من معاني القرآن الكريم كقوله في الفقرة السابقة: "هباءً منثوراً" و"عبرة لقوم يعقلون"، وأيضاً عند حديثه عن الشهيد "نحن لا نبكيك فما تعودنا أن نذرف الدموع على المجاهدين الذين هم عند ربهم أحياء يرزقون" وبعد أن كتب عن عودته إلى وطنه الكريم ووقوفه أمام قبر صانع الحرب والسلام، ثم تذكره لشهداء وطنه، يرى أن ليس في سورية قدماء وجدد في الوطنية، وإنما فيها وطنيون ضحوا وناضلوا في عهد الاستعمار فأحرزوا النصر، وفيها وطنيون يضحون ويناضلون على عهد الاستقلال، وهؤلاء وأولئك لهم المقام العالي في قلب سورية، في مقالته "قدماء وجدد" (1)

(1) السابق، ص 34

ولم يعد إلى وطنه ليستمتع بالحرية فقط، بل عاد أيضاً ليوطد استقلال بلاده، ويهاجم ما يعيبه ويشينه هناك، فكتب مقالاته السياسية التي تشمل الحديث عن الأمور السياسية المختلفة، كنظام الحكم، وصلاح الحاكم أو فساده، والمطالبة بإصلاح أحوال الرعية والبلاد لأن السياسة ليست مفصولة عن الحياة الاجتماعية، فما يفعله ولادة الأمر ينعكس على حياة الأمة من رقي أو تخلف، وما في الحياة ينعكس ظلاله على السياسة .

ولم يكن في سياسته يتبع حزباً معيناً، أو مذهباً محدداً، إنما يريد من خلال آرائه وآراء غيره أن يرقى وطنه بكشف مثالب الحكم وإيجابياته، فيكون التغيير هو السبيل .

ففي مقالته "بُعْد النظر" ⁽¹⁾ يوجه النظر إلى أهم صفة يجب أن يتمتع بها الحاكم ألا وهي "بعد النظر" : وهو استباق الحوادث، واتخاذ الاحتياطات اللازمة للانتفاع منها إذا كان فيها وجه للانتفاع، ودفع أذاها إذا كانت تنطوي خفاياها على الإيذاء، بكلمة واضحة - أن يربط الحاكم يوم الأمة بغدها. ثم أخذ يضرب المثل بالكوارث القومية التي حلت على الأمة في الفترات الأخيرة الناتجة عن قصر النظر.

ويجذب الديمقراطية - في مقالته "لك رأيك" ⁽²⁾ - بأن لكل الحق في إبداء رأيه دون حجر على رأي الآخرين، ويدعو غيره إلى ذلك ؛ يدعو إلى توحيد الجهود والمسااعي والتضحيات، لا في الحجر على آراء الآخرين والكيد لهم، لكن لتسجيل صفحات المجد والسؤدد، ودفع المؤامرات التي تحاك ضد البلاد .

(1) السابق، ص 31 .

(2) السابق، ص 39 .

وفي مقالته "المسايرة في القضايا العمومية" ⁽¹⁾ يوجب على ولاية الأمور أن يكونوا من الذين لا يتهيبون إعلان آرائهم إذا كانت فيها مصلحة البلاد مهما كان التيار الذي يخالفهم قوياً، ولا يسايرونه خوفاً من غضب أصحابه أو أن يظل لهم أصدقاؤهم. فالمسايرة في القضايا العمومية قد يتفرع عنها الضرر البالغ .

بعد الاستقلال وفي طريق تقدم البلاد عثرات عديدة منها اهتمام الحكام بالشكليات والجدل الذي يدور عليها، فيوجه نظرنا إلى ذلك في مقالته "الشكليات" ⁽²⁾ ويرى أن قضايا البلاد أعظم من أن تحلها هذه المجادلات التي تدور على الشكليات، فمشاكل الأمة تتطلب الغوص إلى الصميم .
وكما ترى .. يعالج أدواء السياسة بنفسه الوطنية الحساسة، مستخدماً التصوير، وألفاظاً سهلة واضحة، وتعابير مباشرة.

فمثلاً في مقالته الأخيرة "الشكليات" يستخدم التصوير، كأن يصور الجدل بالسوس الذي ينخر مستقبل البلدان، وبالماء الذي ينسل خفيه إلى أسس التضامن القومي فيقوض أركانه .
ويعمد إلى المقابلات مثل: "اهتمامنا بالشكليات وانصرافنا عن اللباب"، والتضاد في "الأخذ والرد - يمين ويسار"، كما يستخدم السجع دون تكلف، مثل "وإذا النتيجة ضائعة بين المجادلات البيزنطية، والمماحكات اللغوية النحوية، والمشاحنات الغرضية الذاتية".

(1) السابق. ص 53

(2) السابق، ص 20.

كل ذلك في جو من العاطفة الوطنية، التي تعرض وتناقش رأيها في هدوء .

* * *

وبعد أن قضى في موطنه سنوات قلائل يقفل عائداً إلى مهاجره لا لينسى رسالته التي ما زال يؤديها تجاه عروبه قوميته، بل يخلص لها وينافح من أجلها، لأنها لم تنته بعد فهناك الاحتلال اليهودي بفلسطين، تلك القضية التي استأثرت باهتمام الأدب العربي، وهزت حوادثها وجدانه، وأثارت مشاعره وحركت عقله وفكره، فعبّر عنها بكيانه من شتى جوانبها.

فها هو يكتب مقالته "رسالة الأديب العربي"⁽¹⁾ التي أشعلها حمماً وناراً تلظى على اليهود - من مهاجره - ردّاً على من اتهمه والأدباء العرب بأنهم يزرعون الأحقاد بأدبهم وينشرون الضغائن ضد اليهود، ولا يجعلونه رسالة حب وسلام.

ويرجع بأسلوب مقالته إلى تلك المقالات السياسية الأولى التي تميزت بحماسة في العرض، وتأجج في العاطفة، والخطابية، وأدبية الصياغة، ولأنه لا هوادة مع هؤلاء فجاءت كلماته كالسم الزعاف.

4- المقالة الوصفية:

"ونعني بها التعبير الدائر على الوصف، سواء كان وصفاً لأحد مشاهد الطبيعة، أو وصفاً لانعكاسات الحياة في نفس الكاتب، أو وصفاً لعالم جديد لم يسبق للكاتب أن يعيش فيه"⁽²⁾.

(1) إلياس قنصل: بوانس أيرس، السبت 11 كانون أول 1971م. يجهل مكان النشر، وهي من

مجموعة مقالات أرسلها الكاتب إلى الدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجي .

(2) د/ عبد اللطيف الحديدي: فن المقالة في ضوء النقد الأدبي، ص 47.

وهي تبرز انفعالات المثالي، لاعتمادها على الوصف من خلال الحب والحنين والتعاطف والانفعال، وهي سمات تفرق بين كتابة أديب رحالة في المكان أو الزمان، وكتابة جغرافي رحالة أو مؤرخ⁽¹⁾.

ومن خلال مفهومها السابق تنقسم إلى ثلاثة أقسام⁽²⁾:

1- وصفية طبيعية: وهي التي من خلالها يصور الكاتب بيئته المكانية التي يعيش فيها كما يراها بعينه وحسه وعقله حيث يتعاطف مع الطبيعة تعاطفًا واعيًا.

2- وصفية ذاتية: وهي التي تعبر عن تجارب الكاتب الخاصة في الحياة وما تركه من انعكاسات على نفسه، وتعد دربًا من الحديث الشخصي الأليف المعتمد على المسامرة والفكاهة والسخرية. ويكون الأديب فيها ناقدًا، وهي ما تسمى أيضًا "بالمقالة الشخصية".

3- المقالة الوصفية الخارجية: هي التي تصور عالمًا جديدًا لم يألّفه الكاتب، ووصف ما ينعكس على مرآة نفسه مما شاهده فيه، وهي بذلك تعد تصويرًا لرحلات الكاتب في أماكن وبين أشخاص لم يكن له بهم سابق عهد من خلال عقل واع ونفس حساسة تتأثر بما رأت، وهي ما تسمى بمقالة "وصف الرحلات".

ولكن لا ليل إلى هذا التقسيم، بل إلى تقسيم المقالة الوصفية إلى قسمين فقط: وصفية طبيعية، ووصف الرحلات. ثم وضع المقالة الوصفية الذاتية تحت لون مستقل من ألوان المقالة الأدبية هو المقالة الشخصية⁽¹⁾.

(1) د / محمود شريف: فن المقالة، ص 146 بتصرف

(2) د/ عبد اللطيف الحديدي: فن المقالة في ضوء النقد الأدبي، ص 47 بتصرف

وإذا بحثت عن حظ "إلياس" من المقالات الوصفية تجده قليلاً إذا لم نصف له المقالات الشخصية⁽²⁾.

ويمثل المقالات الوصفية في أدبه مقالاته الوصفية الخارجية أو ما تسمى وصف الرحلات، وهي مقالاته:

"دمشق أقدم مدن العالم"⁽³⁾، "الروح الفنية في دمشق"⁽⁴⁾، "تاجر من دمشق"⁽⁵⁾، "أربعة وزراء"⁽⁶⁾.

وفي المقالة الأولى "دمشق أقدم مدن العالم": يرى أن دمشق ملتقى الحضارات المختلفة وهي تجمع بين مستقبل وحاضر وماض، هذا عندما شاهد أماكنها خاصة سوق الحميدية الذي تقابلك فيه الأزياء المتباينة، ومع تباينها وغرابتها فالناس لا يحفلون بما يشاهدون من طرائف الألبسة ونوابي الأردية مهما تباعدت عن الذوق، وكذلك أماكن البيع وأصحابها الذين يختلفون بساطة ورقى بحال بضاعتهم، ولكل مظهر من المظاهر عملاء وقصّاد وهواه.

(1) د/ محمد يوسف نجم: فن المقالة، انظر: الصورة الشخصية ص 102، والمقالة الوصفية

ص 114، ووصف الرحلات ص 115.

(2) راجع: المقالة الشخصية، ص من البحث.

(3) إلياس قنصل: هنا وهناك، ص 85.

(4) السابق: ص 89.

(5) السابق: ص 93.

(6) السلبق: ص 97.

يبدأ مقالته بمقدمة موجزة ينبثق عنها موضوع المقالة:

"لا أظن أن في الدنيا كلها مدينة تلتقي فيها معنى الحضارات المختلفة كما تلتقي في دمشق".

ثم يجمع في عرض مقالته الملاحظات بدقة ويقارن بينها ويتناولها بالتحليل والأصفاء، محاولاً فهم المعاني الحقيقية التي تكمن وراء المراثيات التي تقع عليها عينه، مجيداً الوصف - وهو عدته التي تقوم عليها المقالة الوصفية - وتكثر الصور التي يلتقطها من الشارع كمصور مبدع، يضيف إليها من نفسه، مما يجعل قارئه منجذباً إلى هذه الصور الحية النابضة، وما عليه إلا تمني رؤية ما رآه الكاتب.

وقد جاءت ألفاظ المقالة واضحة لا غرابة فيها، تناسب المعنى.

وفي مقالته "الروح الفنية في دمشق": يتحدث عن الروح الفنية في دمشق - من خلال رحلته إليها أيضاً - هذه الروح التي لا تجدها في الأدب الدمشقي، أو الرسم، أو الموسيقى، أو حتى في التمثيل، بل تجد هذه الروح - التي تخلع على دمشق سحراً شرقياً منعماً النظير - في العبارات التي يرسلها الباعة المتجولون ترويحاً لما يحملون من البضاعة، كقول بائع الموز: "أنا بياع العسل بلا خشب"، أو بائع "سكر عنبر": "جاءني خبر غريب أنو تل أبيب ستنزل عليها صاعقة عن قريب"، أو غيرها من التعبيرات.

إذا طالعت المقالة تراه قد أجاد الوصف فيها، الذي جاء بسيطاً لكنه دقيق، والتصوير الذي جاء ساذجاً لكنه معبر أدق تعبير، وانظر إلى هذا التشبيه الجديد الطريف، عندما يقول عن عبارات الباعة المتجولين التي يصعب فهمها: "إن هؤلاء يمثلون في عالم الدعاية الفنية ما تمثله المدرسة الرمزية من الأدب الفحل، فأعرض عنهم كما أعرض القراء عن الرمزيين".

ولا تخلو المقالة من الفكاهة الخفيفة، كما لا تخلو من ضرب الأمثلة .
الفاظها بسيطة كسابقتها، وقد نقل الكاتب ألفاظ البائعين العامة بنصها
لتكون أبلغ تعبيراً، وقد كانت .

والمقالة الثالثة "تاجر من دمشق" : لا تختلف عنهما كثيراً من تصوير
ساذج بسيط - الذي هو الخاصة الأولى للمقالة الفنية - ومن دقة
في الوصف .

وقد أخذ في مقالته لقطة من مشاهد الحية في دمشق، ثم جملها بالوصف
فجاءت رائعة، وقد أحسن نقلها إلينا بمشاعره التي أثر فيها ما رآه .

فبعد أن وصف في عجلة سوق الحميدية ركز بصره على هذه الدكانة
الحقيرة الصغيرة، ليصفها ويصف صاحبها بدقة، وأنه مع تواضع الدكانة
وصاحبها وصل إلى الشراء .. كيف؟؟ لا يدري. وهذه خاصية أسواق دمشق
المدينة العجيبة الغربية.

ونلاحظ على هذه المقالة أنه أكثر فيها استخدام النعت، الذي قد يكون
من لوازم الوصف الجيد إذا أحسن استخدامه كما فعل الكاتب فأحسن هنا .
وفي المقالة الأخيرة "أربعة وزراء" : يصور الكاتب انطباعه عما رآه في
دمشق أيضاً، فقد قابل بنفسه ثلاثة من وزرائها على غير موعد، يمشون
ويتحركون في شوارعها وأماكنها كأشخاص عاديين من مواطنيها لا كوكبة
أمامهم أو وراءهم، مقارناً ذلك بوزير أحد الدول الأوربية أراد لقاءه فحالت
العراقيل دون ذلك اللقاء، ناهيك عما شاهده من كوكبة عظيمة من الجنود
والسيارات المصفحة تتقدم موكب خروجه وتتأخره .

يستغل عنصر القص من مشاهدته، ويستخدم ألفاظاً واضحة، وتعابير مباشرة - وهذا دأبه - وقد يستخدم قليلاً بعض التعابير التي تقترب كثيراً من العامية مثل قوله "وما صدقت أن انتهي العرض".

وكما ترى جاءت المقالات الأربع رحلة قام بها الكاتب إلى دمشق، في هذه الرحلة شاهد ولاحظ وتأثر بما شاهد من التجربة الحية التي قام بها بنفسه وتفاعل معها، فعبّر عنها بنفس حساسة وعقلاً واعياً، فخرج أكثر فهماً، وأصدق ملاحظة، وأغنى ثقافة، وأعمق تأملاً، وهي بذلك تختلف عما يكتبه رحالة جغرافي.

والقارئ فيها يتذوق ما يكتبه الأديب عن مرثياته مع عمق في الإحساس وبراعة في التصوير، مما جعل القارئ يستمتع بما يقرأ محاولاً إعادة تشكيل تلك التجربة التي مر بها الكاتب بنفسه. (1)

5- مقالة السيرة:

هي صورة حية لإنسان ما، تصور موقفاً إنسانياً خاصاً من شخصيته، فيعكس لنا الكاتب تأثيره بها وانطباعاته الخاصة عنها، معتمداً على التنسيق والاختيار، مما يجعل هذه الشخصية الموصوفة حية متحركة، فنعجب ببعض صفاتها أو ننفر من بعضها، وهو بذلك يختلف في كتابتها عن كاتب التراجم الذي يجمع وينسق ويعرض معلوماته عرضاً علمياً موضوعياً (2).

(1) د/ محمد يوسف نجم: فن المقالة، ص 116 "بتصرف".

(2) السابق: ص 117. "بتصرف".

قد يكتب الأديب هذه المقالة من خلال ذكريات يحكيها غيره، كمقالته "أمين الريحاني"⁽¹⁾ حين ينقل لنا بعض مواقف الأديب أمين الريحاني عن أخيه البير تدل على أن "أمين" لم يكن يعبأ بالمال كثيراً أو قليلاً، وقد أنفق الكثير وكان إنسانياً ذا قلب رقيق.

وقد تكتب مقالة السيرة في إطار علاقة مباشرة تجمع المقال بشخصيته بطل المقالة، وتمثلها مقالاته: "طه حسين"⁽²⁾ - "نقولا فياض"⁽³⁾ -

(1) إلياس قنصل: هنا وهناك، ص 149. جاءت هذه المقالة من مقالات السيرة عندما جعلها الكاتب قاصرة على أمين الريحاني، لكنها كانت سابقاً مقالة وصفية قبل اختصارها حينما نشرت في المواهب: يصف الكاتب الرحلة التي قام بها إلى محلة "القلوق" أو "اللؤلؤ" في لبنان منشأ الأديب أمين الريحاني، ويصف الطبيعة وصفاً دقيقاً، متطرقاً إلى لقطات من حياة الأديب. انظر: المواهب: السنة التاسعة عشرة، 1964 م، العدد 3، ص 17.

(2) إلياس قنصل: هنا وهناك، ص 152.

(3) السابق: ص 156. نقولا يوسف فياض (1873 - 1958 م): ولد في بيروت، وتوفي فيها. عاش في لبنان وفرنسا ومصر. تلقى تعليمه في مدرسة الأقمار الثلاثة، ثم التحق بكلية الطب الفرنسية ببيروت، وتخرج فيها (1899)، ثم قصد باريس بغرض التخصص في دراسة الطب، وقضى فيها خمس سنوات (1906 - 1911). في بداية حياته عمل بالصحافة محرراً في الأخبار والبصير والشرق، وكتب في المقتطف والهلل والأهرام والأديب، كما عمل بالتجارة، ثم عمل طبيباً في مستشفى القديس جيورجوس للروم الأرثوذكس، وقد اختير نائباً في مجلس النواب ومديراً لمديرية البريد. كان عضواً بالمجمع العلمي العربي بدمشق، وله إسهاماته في الحياة الأدبية في مصر خلال قرابة ربع قرن. الإنتاج الشعري: - صدر له ديوانان هما: «رفيف الأقحوان» و«بعد الأصيل» - وله قصائد نشرت في مجلة البرق والمكشوف. الأعمال الأخرى: - له عدد من المؤلفات المتنوعة، منها: «المرأة والشعر» - «خواطر في الصحة والأدب» - «الخطابة» - «على المنبر» - «كيف تغلب الإنسان على المرض» - «كيف تغلب الإنسان على الألم» - «دنيا وأديان» - «من نافذة العقل» - وله عدد من الأعمال المخطوطة، منها: «فتح مصر» (رواية)، و«الحب الحجري»

« تعريف الخطابة ونشأتها »

تعريفها:

أتم وأسلم تعريف لها هو أنها: «فن مخاطبة الجماهير للتأثير عليهم واستمالتهم».

أركانها:

- ١ - فن: أي خبرة ومعرفة ومراعاة وملكة.
 - ٢ - مخاطبة: أي مشافهة، ومواجهة.
 - ٣ - خطيب: أي لامقرئ أو مُلقٍ يقرأ كتاباً أو يلقي موضوعاً.
 - ٤ - جمهور: أي جمع كثير من المستمعين.
 - ٥ - تأثير: أي إثارة عواطف وتنبيه شعور.
- وإذا ما انعدم عنصر أو ركن من الخمس افتقدت الخطابة جزءاً هاماً منها، ولا ينبغي أن تسمى خطابة للآتي:
- أ - لأنه إذا انعدم الفن والخبرة: كان الكلام تهريجاً.
 - ب - وإذا عُدمت المخاطبة كان تلاوةً أو ترديداً.
 - ج - وإذا لم يوجد جمهور كان الكلام حديثاً أو وصية.
 - د - وإذا لم يوجد خطيب كان إلقاءً وقد يكون بالنيابة عن غيره.
 - هـ - وإذا لم يحصل تأثير كانت عديمة الثمرة ومضيعة للوقت.

نشأتها :

منذ اجتمع الناس في مكان واحد استوطنوه، وتفاهموا بلسان واحد، عرفوا الخطابة، لأنه من الطبيعي أن يختلفوا في رأي أو عقيدة، ومن الطبيعي أن يتنافسوا على غنيمة أو متاع أو سلطة فيحاول المتفوق أن يستميل إليه من يخالفون، وأن يقنعهم، فإذا ما أقنعهم واستمأهم فهو خطيب وقوله خطبة.

لذلك لم يخل من الخطابة سجل أمة وعى التاريخ ماضيها، فقد حفظها خط آشور المسماري، وقيدها خط الفراعنة الهيروغليفية، ثم رواها تاريخ اليونان السياسي والأدبي منذ القرن السابع قبل الميلاد، وبها أخضع بوذا الجموع الهندية لتعاليمه، وبها أذاع الدين أنبياء بني اسرائيل، وكان لها مكانها العظيم في مجامع العرب قبل الإسلام وفي أسواقهم الأدبية بنوع خاص.

الفرق بينها وبين غيرها من فنون النثر:

لا يخلو الكلام مع الناس من كونه مع أفراد أو جماهير فالكلام مع غير الجماهير إن كان للإفهام والبيان فهو حديث، وإن كان لحث على مصلحتهم شفقة بهم فهو وصية، والكلام مع الجماهير، إما أن يكون لشرح حقيقة علمية، أو لبيان نظرية، فهو محاضرة، وإما أن يكون لإثارة الشعور، وبث الحماسة، وتحريك العواطف، واستمالة المخاطبين، فهو خطابة فقد تكون موضوعات الخطابة معلومة لدى الناس، كما في خطب الجمع مثلاً إذا تناول الخطيب موضوع الصدق والأمانة، يحث عليهما، أو موضوع الربا وحذر منه، فإن جميع السامعين يعلمون وجوب الصدق ولزوم الأمانة كما يعلمون تحريم الربا. إلا أن الخطيب حينما يتكلم عن المعلوم فإنما يريد إثارة العواطف والشعور بما علمت ويؤثر على السامعين بما يليقهم، ويصل بهم إلى العمل بالفعل.

خاصية الخطابة :

الخطابة تخص الجماهير، والخطيب قد يواجه جمهوراً مختلف الطبقات، متنوع المشارب، مختلف المسالك، وقد يشتمل على من لا يعرفهم ولا يعرفونه.

ثم هو يتقدم إليهم موجهاً ومرشداً وقد يكون آمراً وناهياً، فعليه أن يستميلهم إلى جانبه ويقنعهم بمذهبه ويقودهم إلى مسلكه.

وقد تكون الفكرة جديدة عليهم، أو ثقيلة على نفوسهم، مما يؤدي إلى تردد أو امتناع، ومن ثم فعليه أن يروض نفوسهم وإن كانت جامحة، ويقنع أذهانهم وإن كانت معاندة، فيصبح قائداً للجماهير الأبية، ومحققاً لرغباته من كافة سامعيه، على اختلاف وجهاتهم وليس هذا بالأمر السهل، لأن بعض النفوس كما شبههم عمر رضي الله عنه بقوله: «والناس كجمل أنف».

أنواع ومواضيع الخطابة :

تعتبر الخطابة أثراً من آثار الرقي الإنساني، ومظهراً من مظاهر التقدم الاجتماعي، ولهذا عني بها كل شعب، واهتمت بها كل الأمم في كل زمان ومكان، وكان هناك عدة أسباب أدت إلى ازدهارها، من تلك الأسباب، طبيعة مواضيع الخطابة :

١ - حث على حرب أو حض على سلم : وبطبيعة الحال

لايتعرض لهذه المواضيع إلا من كان سيداً مطاعاً لأنه يُسمع قوله ويطاع أمره في مثل تلك المواقف.

٢ - التهاني أو التعازي: وذلك كما إذا أرادت قبيلة أن تهنيء قبيلة

أخرى بمكرمة، كظهور فارس أو نبوغ شاعر أو غير ذلك فإنها ستوفد من طرفها من يؤدي ذلك عنها، وبطبيعة الحال أيضاً لن تختار إلا من أشرافها ليمثلوها ويعبروا عنها.

٣ - المفاخرات والمنافرات: يقع هذان الغرضان عادةً بين قبيلتين

عظمتين يرى كل قبيل منهما أنه أعلى وأعظم من القبيل الآخر فيرفع من شأنه ويحط من قدر من يقابله وعليه فلن يتقدم لتعداد المفاخر إلا الفضلاء.

٤ - ما حصل للشعر من ابتذال وتدن: بسبب وجود بعض المتكسبين

به مما رفع من شأن الخطابة، وغير ذلك فإن الشعر سليقة ميسرة للصغير والكبير والشريف والدنيء، والرفيع والوضيع، بينما الخطابة لاتسند إلا للسادة والنبلاء.

عناية الإسلام بالخطابة:

ثم جاء الإسلام فكانت عنايته بها أشد واهتمامه بها أقوى، كيف لا ورسالته كلها مبناهما على وحي يوحى وقرآن يتلى وقراءته عبادة، وكانت كبرى المعجزات إنما هي فصاحة وبلاغة تحدث الفصحاء والبلغاء في صميم لغتهم وفي عقر ديارهم، فتراجع أمامها فرسان البلاغة، وتقهر دونها أئمة البيان، واستسلموا لسلطانها، وسجدوا لسحر بيانها «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله».

وقد نوه القرآن الكريم عن مدى عظم الخطابة والبيان وصلتهما بالرسالات والدعاة في غير ما موطن، فعن أصل الرسالة يقول تعالى:

﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه لين لهم﴾.

أي البيان الذي يصحبه الإقناع ويشمر الاستجابة، ونوه عن مساندتها للرسالة في قصة بعثة موسى عليه السلام ومساندته بأخيه هارون كما في قوله تعالى عن موسى عليه السلام:

﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدّقني إني أخاف أن يكذبون قال سنشدّ عضدك بأخيك﴾.

فكانت فصاحة أخيه من عوامل ترشيحه للرسالة وشد عضد أخيه.

لقد كان للخطابة في ظل الإسلام أعظم الأثر في الدفاع عن الإسلام، وفي الدعوة إليه. وكذلك كان لها الحظ الأوفر في قتال الأعداء كما روى ابن

إسحاق في غزوة بدر: ثم خرج رسول الله ﷺ فحرضهم على القتال وقال: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» فكان لكلماته ﷺ أقوى تأثير على نفوسهم مما جعل أحد المقاتلين عمير بن الحمام يستعجل الموت ويستطيل الحياة فيقول: بخ، بخ^(١)، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء وكان بيده تمرات يأكلهن، فقذف بهن وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل، وبهذه الروح اندفع المؤمنون إلى قتال العدو ونصرهم الله تعالى، وهكذا كان في عهد الخلفاء والفتوحات الإسلامية، كانت الخطابة تسبق القتال، وكذلك في السلم فقد عُني بها كل العناية حتى أصبحت جزءاً من العبادة فنصبت لها المنابر في المساجد وجُعِلت في مقدمة الجمع والأعياد، واختص بها أفاضل الناس وأئمتهم في مهام الأمور، الأمر الذي انتهى بالتوجيه والبيان.

وكان ﷺ إذا أراد بيان أمر، أو جدد جديد يحتاج إلى بيان، صعد المنبر وخطب الناس، كما في قصة بريرة لما اشترط أهلها على عائشة رضي الله عنها أن تعتقها ويكون الولاء لهم، خطب رسول الله ﷺ وبين أن كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل: الولاء لمن أعتق.

وقد كانت خطبته في حجة الوداع خلاصة عامة شاملة لمهام الدين وأسس التعامل. وقد بقيت الخطابة إلى أواخر العصر العباسي، موضع العناية وأداة التوجيه إلى أن أصيب العالم الإسلامي بما يسمى الانحطاط الأدبي، فأهملت الخطابة، واقتصرت على الجمع والأعياد، في شكليات وتقاليد حتى أصبحت خطبة الجمعة تعاد وتكرر في كل جمعة من موعدها في السنة التي تليها، ووضعت دواوين لهذا الغرض، وصارت مهمة الخطيب أن يتلو ما كتب غيره، فضعفت الملكات الخطابية وماتت القدرة الإنشائية.

(١) بمعنى استحسن: وهي اسم فعل مضارع.

فمن الواجب علينا كمسلمين أولاً وقبل كل شيء في مشارق الأرض ومغاربها، ودعاة إلى الله بوجه خاص، أن نغنى بالخطابة عناية فائقة، ولاسيما الخطابة الدينية، من وعظ وإرشاد وتوجيه وتثقيف وبيان لتعاليم الإسلام في أصول الدين وفروعه ومحاسنه في العبادات والمعاملات والاجتماعيات.

فالإسلام الآن في أمس الحاجة إلى دعاة خطباء بلغاء، ولا يتم ذلك لمن شاء النجاح فيها والوصول إلى غايته عن طريقها إلا من خلال أسس الخطابة وعوامل قوتها ونجاحها.

دواعي قوة الخطابة:

أهم دواعي قوة الخطابة العوامل الآتية:

- ١ - قوة الخطيب.
- ٢ - أهمية الموضوع.
- ٣ - حسن الإعداد.
- ٤ - وجود الفرصة المناسبة زماناً ومكاناً.
- ٥ - توفر الحرية، والتطلع إلى مثل عليا في الحياة.

دواعي قوة الخطيب:

تنقسم دواعي قوة الخطيب إلى قسمين: أساسي وفرعي.

القسم الأساسي:

- ١ - استعدادة الفطري: ويمكن له أن يقوي هذا الاستعداد وينميه بالتدريب، وكثرة مزاولة الخطابة.
- ٢ - اللّسن والفصاحة: ومنه حسن المنطق، وصحة إظهار الحروف، ثم قوة التعبير، واختيار الألفاظ.

٣ - التزود بالعلوم في شتى الفنون.

٤ - حضور البديهة: وهي التي تعينه على مواجهة الطوارئ حسب مقتضيات المواقف المختلفة.

٥ - معرفة نفسية السامعين: فهو النافذة التي ينفذ منها إلى القلوب.

٦ - العواطف الجياشة بمعاني الموضوع: الذي تتناوله الخطبة، وإيمان الخطيب بفكرته وثقته بنجاحه.

القسم الفرعي:

هو في الواقع شكلي يُكسب الخطيب هبة ووقاراً يدعم موقفه:

١ - حسن سمته: مما يلفت الأنظار إليه ويعلي قدره قبل تحدّثه.

٢ - روعة إلقائه: وتكييف نبرات صوته، وحسن جرسه مما يستولي على أسماع الحاضرين.

٣ - حسن إشاراته: ومجيئها في مواضعها عند الحاجة.

٤ - إخلاصه وسمو أخلاقه، وحسن سيرته: وخاصة في الخطابة الدينية.

[وقد سمع الحسن البصري رحمه الله خطيباً ولم يتأثر به فقال: يا هذا إن بقلبك لشراً أو بقلبي].

عيوب الخطابة وما ينبغي للخطيب تجنبه:

تنقسم العيوب في الخطابة إلى قسمين:

١ - قسم خلقي: في الخطيب يتعلق بالنطق، كاللثغ والفأفة، والتأتأة.

أ - اللثغ: هو تغيير بعض الحروف كالراء ينطقها غيناً أو ياء أو بينهما، ويرى كبار العلماء أنه أخفها بل ويستعذبها بعض الناس ويعدها الجاحظ

من محاسن النبلاء والأشراف وواصل بن عطاء من كبار الخطباء وكان ألثغ في الرء فكان يحاول مجانبتها باستعمال كلمات خالية من الرء بدلاً مما هي فيها.

ومن طريف ما ينقل عنه في بشار بن برد يرد عليه قال: «أما لهذا الأعمى الملحد المشنف المكنى بأبي معاذ من يقتله، أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت إليه من يبيع بطنه على مضجعه، ويقتله في جوف منزله أو في حفله» فتراه قد جانب الرء في (بشار)، وفي (المرعث) وفي (ابن برد) واستبدلها بأوصاف المشنف، أبي معاذ، واستعمل الملحد بدلاً من الكافر، واستعمل بعث بدلاً من أرسلت، ويبيع بدلاً من يقرر، ومضجعه بدلاً من فراشه، ومنزله بدلاً من داره.

ومثل ذلك ما حكى من أن بعض الناس أراد إخراجهم وهو يخطب فناوله ورقة مكتوب فيها، «أمر أمير المؤمنين بحفر بئر على قارعة الطريق ليرده الجائي والرائح».

فتناولها وعلم المقصود منها لكثرة الرء فيها، فقال: «حكم الخليفة بشق جب على جانب السبيل ليتزود منه الجائي والغادي».

فعلى الخطيب إن كان مصاباً في هذا المرض أن يحاول تجنب اللثغة في الخطابة.

ب - الفأفة: كثرة ظهور الفاء في الكلام لثقل في اللسان، ومثلها التأتأة وبعض الناس يظهر ذلك في نطقه العادي فإذا أخذ في الخطابة قل ذلك في كلامه، إما لحماسة، أو لسرعة إلقائه، أو لشدة عنايته.

٢ - قسم عارض أثناء الخطابة: كالحصر، والإعياء، والاستعانة.

أ - الحصر: فهو احتباس اللسان عن الكلام فقد يطرأ على الخطيب

بسبب الدهشة مما يفجأ نظره أو سمعه أو بالحيرة مما يواجهه أو يتوهمه، وهذا من أخطر المواقف على الخطيب، سرعان ماتظهر آثاره على وجهه، فيشحب لونه، ويتصبب عرقاً، ويجف ريقه، وربما دارت رأسه، وطنت أذنه، وخارت قواه، وقلَّ أن يوجد لهذه الأزمة حلاً إلا جلد الخطيب وقوة شخصيته، وخير وسيلة لتدارك موقفه إما بالجلوس وتناول شيء من الماء أو طلبه إن لم يكن موجوداً، ولو لم تكن لديه شدة حاجة، وإما بتناوله كتاباً أو جريدة أو أوراقاً يقلب صفحاتها، أو أي شيء يتشاغل به نسبياً حتى تذهب عنه الدهشة، وهو في أثناء ذلك يعالج بفكره افتتاح الكلام، ولو أن يقرأ فاتحة الكتاب، ومن هنا كانت قوة شخصية الخطيب وإعداداته للخطبة أقوى عدة لنجاح الخطبة.

وقد يُسعف الخطيب عبارة موجزة تغطي الموقف فيكتفي بها وكأنه مأرأد إلا هي فيحسن التخلص من المأزق بها.

صور من ذلك:

أ - في أول خطبة لعثمان بعد توليه الخلافة صعد المنبر فأرتج عليه فقال: أيها الناس إن أول مركب صعب، وإن أعشى تأتكم الخطب على وجهها، وسيجعل الله بعد العسر يسراً. (هكذا يروي علماء الأدب، وابن كثير يقول: لم أجد ذلك بسند تسكن النفس إليه)^(١).

ب - ماينقل عن ثابت بن قطنة على منبر سجستان يوم الجمعة وقد أحصر فقال: سيجعل الله بعد عسر يسراً، وبعد عي بياناً، وأنتم إلى أمير فعال أخرج منكم إلى أمير قوال.

فإن لأكن فيكم خطيباً فإنني بسيفي إذا جد الوغى لخطيب

(١) البداية ج ٧ ص ١٤٨

فكان اعتذاره أبلغ من خطابة غيره حتى قال خالد ابن صفوان لما بلغه خبره: والله ما علا ذلك المنبر أخطب منه في كلماته هذه.

ج - وقد يسعف الخطيب نفسه بحسن تصرفه في مال أو نحوه كما فعل عبد الله بن عامر بالبصرة لما أرتج عليه يوم العيد فقال: والله لأجمع عليكم عيأ ولؤماً، ومن أخذ شاة من السوق فهي له وثمنها عليّ.

وعلى الخطيب أن يحتال ليخلص نفسه ولا يرمي بما يجري على لسانه بدون أن يزنه فقد يوقع نفسه في أسوأ مما هو فيه، كما وقع من مصعب بن حيان، دُعي ليخطب في نكاح فأرتج عليه فقال: لقنوا موتاكم لا إله إلا الله ، فقالت أم الفتاة: عجل الله موتك ألهذا دعوناك.

ب - الاستعانة: فهي ما يتحيل به الخطيب لاستجداء فكره وكلامه، وقد يصبح عادة وهو لا يدري.

من ذلك أن يعث بأصابعه أو مسبحته أو أنفه أو لحيته أو عمامته.. إلخ، أو أن يأتي بعبارات ليست ذات معنى جديد، إما إعادة لعبارات مضت، أو قوله لمثل: علمتم أيها الناس، اسمعوا ما أقول، أفهمتم ما مضى.

قال رجل للعتابي: ما البلاغة؟ فقال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة، ولا حبة، ولا استعانة، فهو بليغ، قال: قد عرفت إعادة والحبة، فما الاستعانة؟ قال: أن يقول عند مقاطع كلامه: ياهنا، وياهذا، وياهيه، واسمع مني، واستمع إليّ، فليحذر المتكلم من الاستعانة والتعود عليها.

ما يلزم إعداده للخطبة قبل إلقائها:

يلزم للخطبة قبل إلقائها الخطوات التالية:

- ١ - الإعداد لها من تحضير مواد أساسية لموضوعها.
- ٢ - التخطيط لإلقائها وترتيب نصوصها لحسن عرض موضوعها.
- ٣ - تقسيمها في بنائها إلى مقدمة، وموضوع، وخاتمة.

التحضير للخطبة

تعتبر الخطابة كأى صناعة فنية، والخطبة فى ذاتها تعتبر كأى كائن فنى له عوامل إبداع تسبق وجوده، وهى فى نظرى أشبه ماتكون ببناء بيت ثابت الأركان محدد الجوانب، فكما أن إقامة بيت للسكنى يحتاج إلى تحضير سابق يبدأ من اختيار المكان ثم تجهيز المواد الأساسية ثم الزمن الملائم لبدء البناء.

فهكذا التحضير للخطبة لابد من اختيار المكان أو مرعاة ملائماته، ومثله الزمان كذلك، أما المواد فلا بد من استحضارها وهى النصوص والشواهد والأدلة فمثلاً يريد الحديث عن التعاون فعليه أن يستحضر أولاً وقبل كل شىء النصوص التى لها صلة بالموضوع، ثم يرتب أفكار الخطبة بالإستناد إليها.

التخطيط للخطبة

حيث يضع النصوص أمامه ويختار بأي هذه النصوص يبدأ كلامه؟ وأيها يكون كأصل؟ وأيها يكون كالتمم والمبين؟ وهذا التخطيط لعرض النصوص هو كالتخطيط تماماً لإقامة البيت، أين يكون مدخله وأركانه ومجالسه ونوافذه؟

تطبيق ذلك:

لو أردنا أن نتكلم عن موضوع الاستقامة مثلاً.

١ - يمكن أن نعتبر آية الاستقامة التالية «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا» أساس فى الموضوع، فنقدمها ونتكلم على أولها «إن الذين قالوا ربنا الله»، ونبين معانى الربوبية وتوحيد الربوبية كاملاً قدر الإمكان، ثم ننتقل إلى «استقاموا» فنجعلها مجملة، ونقول: إن معنى الاستقامة هنا عام يحتاج إلى

تفسير كما في الحديث: «قل آمنت بالله ثم استقم» ونجعل قوله ﷺ: «قل آمنت بالله»، مثل مقدمة: «الذين قالوا ربنا الله»، فتكلم أيضاً على معنى آمنت بالله ونأتي بمعاني توحيد الألوهية، وبمقدمة كل من الحديث والآية نجد مناسبة للكلام على قسمي التوحيد وليكن بالقدر الذي يجعله كأساس للاستقامة مبتدئاً من العقيدة.

٢ - ثم نأتي إلى الاستقامة كما قلنا فنجدها عامة وفي حاجة إلى بيان فنأخذ الآية الثانية وهي قوله تعالى: «قل تعالوا أتْلُ ما حرم ربكم عليكم ألاَّ تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم من أملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش مظهر منها ومابطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها، وإذا قُلْتُمْ فاعملوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون، وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون». [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣]. فستجد مطلع الآيات متفقاً مع ما قبله «ألا تشركوا به شيئاً» فتشير إلى هذا الربط وهذه المشاركة، بدون إطالة وإعادة مملة، ثم تمضي تعدد الأوامر والنواهي المذكورة كلها وتبين شمولها لشتى مرافق الحياة وتنبه على أن هذا هو تفسير الاستقامة المجملة في تلك النصوص مستشهداً بنهاية الآية «وأن هذا» أي المذكورات «صراطي مستقيماً فاتبعوه» وأن ماعداها سبيل الضلال، ونأتي بالحديث «خط لنا خطاً!!» إلخ مبيناً خطر السبل الأخرى.

٣ - ثم تشير إلى عناية الإسلام بالاستقامة وعظم شأنها بما تعبدنا الله تعالى من سؤلها في آية «اهدنا الصراط المستقيم..» إلى آخر السورة.

٤ - ثم نعود إلى نهاية آية الاستقامة التي بدأنا بها لنبين ماأعد الله للمستقيمين من حسن الجزاء معجلاً في الدنيا ومؤجلاً في الآخرة.

أ - ففي الدنيا: تنزل عليهم الملائكة عند النزع «ألاً تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة».

ب - في الآخرة: «ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون. نزلاً من غفور رحيم» [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

تنبيهان:

الأول: يلاحظ عند عرض جزئيات الآية السابقة ضرورة مراعاة الزمن وظروف السامعين فيمكن له أن يطيل في بعض النقاط ويقتصر في بعضها الآخر حسب ما يلحظه في مجتمع السامعين.

الثاني: إن عمل التخطيط المشار إليه من الأهمية بمكان، كما يفهم من تصريح عمر رضي الله عنه يوم السقيفة حيث قال: «لقد زوّرت كلمات أعجبتني»، أي حضّرتها وأعدّتها، فقال لي أبو بكر: على رسلك يا عمر، فوالله لقد جاء عليها كلها، فهذا عمر سفير قريش في الجاهلية، سفير في الجاهلية وملهم ومحدث في الإسلام، يزور^(١) كلمات يواجه بها الموقف. فمن لم يبال بهذا العمل فإنه لا يسلم من الفشل.

أجزاء الخطبة

اتفق علماء البيان وفن الخطابة، على أن الخطبة تبنى من أجزاء ثلاثة

هي:

(١) زور الشيء تزويراً: حسّنه وقوّمه.

١ - المقدمة.

٢ - الموضوع.

٣ - الخاتمة.

ولكل جزء منها أهميته ومساهمته في إنجاحها.

١-المقدمة

هي عبارة عما يستهلُّ به الخطيب كلامه، وأول ما يطرق آذان السامعين بادیء ذي بدء، فتفتح له الآذان، وتتهيا به الأذهان، فينتقل السامع بمقتضاه من جو اللامبالاة، إلى الاعتناء والانتباه، فيستيقظ شعوره لما سيلقى عليه. وكان يعمد الشعراء إلى الغزل في مطلع القصيدة لهذا الغرض.

من هذا القبيل إيراد الرسول ﷺ السؤال على معاذ قبل أن يبين له: «أتدري ماحق الله على العباد، وماحق العباد على الله ، ففيه توعية له وانتباه لأهمية ما سيلقى عليه، بل وتطلع لما كان منصرفاً عنه.

إلا أن مقدمة الخطبة ينبغي أن تشتمل على أكثر من ذلك، وهو أن تشير إلى ماله صلة بالموضوع، حتى ليكاد الفطن أن يدرك ما سيتحدث عنه الخطيب، وهو المسمى ببراعة الاستهلال.

أنواعها: إذا علمنا أن المقدمة للخطبة بمثابة المفتاح للقفل، حيث إنها تفتح الآذان وتنبه الشعور ليعي القلب ما سيلقى عليه، فمن الضروري تنوع المقدمات بتنوع المواضيع.

أ - فقد تستهل بحمد الله تعالى والثناء عليه، وهو الكثير الغالب.

ب - وقد تستهل بالترحم على عظيم، كخطبة علي رضي الله عنه، يوم وفاة أبي بكر رضي الله عنه، حيث وقف على الباب الذي فيه الصديق رضي الله عنه فقال: «يرحمك الله أبا بكر كنت إلف رسول الله ﷺ وأنسه وثقته،

وموضع سره... واسترسل في تعداد مناقبه رضي الله عنه فما قضى كلامه حتى أبكى الحاضرين وعلت أصواتهم.

وقد فعل الحجاج لما مات ولده محمد وجاءه نعي أخيه محمد فقال: «أيها الناس محمدان في يوم واحد، أما والله ما كنت أحسب أنهما معي في الحياة الدنيا لما أرجو لهما من ثواب الله في الآخرة..» فقد بدأ باسمهما لعظيم فجيعة فيهما.

ج - وقد تبدأ بيت شعر يتناسب مع موضوعها كما فعل الحجاج لما قدم العراق وصعد المنبر ضحوة النهار وصمت ساعة والناس ينظرون وينتظرون مايفعل حتى بدأهم بقوله:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

وكما على الخطيب أن يولي مقدمته عناية، وأن يتخير مايناسب موضوعه فإنه يجب عليه أن ألا يطيل فيها ويفرغ جهده في مقدمته، فيأتي إلى الموضوع الذي هو الأساس وقد أجهد فيقصر في عرضه، أو يكون السامع قد سئم فلا يستوعبه فتضيع الفائدة ولاتحقق الغاية.

الاستغناء عن المقدمة: قد يستوجب المقام ترك المقدمة بالكلية والاستغناء عنها في الحالات التالية:

١ - إذا كان الموضوع واضحاً لا يحتاج إلى لفت الأنظار أو كان سهلاً بسيطاً لا يستوجب شدة الانتباه.

٢ - إذا كان الكلام في موضوع سبق أن تناوله متحدث قبله كالمشاركين في ندوة أو المتكلم الأول قدم للموضوع بما يكفي.

٣ - إذا كان الكلام عن جزئية في موضوع كتعليق على خطبة أو محاضرة.

٤ - إذا كان الكلام في موضوع كثير التناول ولن يأتي فيه المتحدث بجديد.

٥ - إذا كان الوقت ضيقاً لا يتسع إلى مقدمة، والفرصة تفوت وتضيع الفائدة.

ففي هذه الحالات يعتمد المتكلم إلى الموضوع مباشرة.

وقد يجتزئ الخطيب مقدمته ويأتي إلى الموضوع حالاً لخطورة الموقف، وشدة تطلع الحاضرين إلى الحقيقة المنتظرة، كما فعل الصديق رضي الله عنه في خطبته عند وفاة الرسول ﷺ، حين كثر الكلام في المسجد واختلط الأمر على الناس فاستنصت عمر فلم ينصت فتركه وصعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

وفي مثل هذه الحالة يجب أن يدعم الخطيب كلامه بأقوى الأدلة المقنعة التي تثبت كلامه وتلزم السامعين به كما فعل الصديق رضي الله عنه فتلا قوله تعالى: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم» [آل عمران: ١٤٤] إلى آخر السياق.

فقد كان إلقاءها عليهم آنذاك وحسن اختيارها بمثابة تجديد نزولها: فما إن سمعها عمر حتى هوى إلى الأرض ماتقله رجلاه.

ومثلها خطبته يوم بويع رضي الله عنه بالخلافة، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إني وليت عليكم ولست بفضلكم، ولكن نزل القرآن وسن النبي ﷺ وعلمنا إلى أن قال: أيها الناس أنا متبع ولست بمبتدع فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فردوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

وكلما كانت المقدمة مسلّمة منطقياً كلما كانت أقوى أثراً وأدعى إلزاماً، وهذا يتحتم في معرض الإنكار والمكابرة، كما فعل النبي ﷺ عند بدء إعلان الدعوة، جمع قومه ثم قدم لهم بقوله بعد حمد الله وأثنى عليه فقال: «إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم...» فقد اجتزأ ﷺ المقدمة لكنه أتى بها قضية مسلّمة «إن الرائد لا يكذب أهله» وأكدّها في خصوص موقفه معهم: «والله لو كذبت الناس ما كذبتكم» مع أنه الصادق الأمين عندهم، ثم أتى موضوعه حالاً بإعلان رسالته إليهم وإلى الناس، ثم دعم مقالته ووعدّه بالبعث بصور مسلّمة أيضاً «لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون».

ومن هنا نعلم مدى أهمية المقدمة ومتى تجتزأ ومتى يمكن الاستغناء عنها وكيف نكيّفها حسب الموقف وهذا يرجع إلى تقدير الخطيب نفسه، للموقف الذي يواجهه والموضوع الذي سيلقيه ونفسيات السامعين الذين سيخاطبهم.

٢. الموضوع

موضوع كل خطبة هو الجزء الرئيسي فيها، وهو المعنى الذي يعتمد الخطيب إلى بيانه وهو الدافع له على أن يقوم خطيباً، كما في خطبته ﷺ يوم جمع قومه عند الصفا وخطبهم فقد بدأ خطبته بحمد الله والثناء عليه ثم قال: «إن الرائد لا يكذب أهله... إلى أن قال: إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة»..

فموضوع الخطبة هو تبليغه ﷺ قومه أنه رسول الله إليهم، وما سبق هذا الجزء من المعاني إنما هو مقدمة يُهيئ بها الأذهان ويستوثق بها منهم في صدق حديثه، فهو أمر جانبي بالنسبة إلى الموضوع ولهذا انفلت لسان أبي

لهب وعبر عن سخطه: ألهذا جمعتنا؟!.. فموضوع الخطبة هو الذي أثار حميته وأنطقه بالسخط.

وكذلك موضوع خطبة الصديق رضي الله عنه في المسجد يوم وفاة النبي ﷺ إنما هو إيلاغ الناس بحقيقة وفاة رسول الله ﷺ، وكل ماجاء قبلها فمقدمة.

فالموضوع في الخطبة هو المقصود بالذات، ومن هنا عظمت أهميته واستوجب الاهتمام به.

أهم متطلبات الموضوع:

لكي ينجح الخطيب في تقديم موضوعه يجب عليه الاهتمام بالآتي:
أولاً: وقبل كل شيء اختياره اختياراً مناسباً للمقام: فلا يقدم موضوع حماسة وشجاعة عند تعزية في عزير، ولا يقدم في معرض صلح بين متخاصمين موضوع حمية وعزة وإباء، بل في الموضوع الأول يقدم عبارات الأسى والأسف والصبر، وفي الثاني موضوع العفو والإحسان والصفح والغفران... إلخ.

ثانياً: أفراد الموضوع: فلا يجمع بين عدة معان لعدة مواضع في وقت واحد. كما لو كان في موقف دعوة إلى صلح فيفرد موضوعه على طلب الصلح وقبوله ولا يدخل في موضوعه أمور الصلح وما يصطلحون عليه ولا يقلب أسباب النزاع وغيرها.

ولا يمنعه في ذلك أن يعرض صوراً لنزاعات مماثلة اصطلاح أهلها، وجنوا ثمار الصلح عاجلاً.

كذلك لا ينبغي للخطيب أن يجعل طول الخطبة وقصرها من مهام حسبانته بل المهم كل الأهمية إفهام السامعين وتأثرهم بموضوع الخطبة، وقد

يكون قصرها أبلغ وأيسر كما قيل: خير الكلام ما قل ودل.. ومن وصايا الصديق رضي الله عنه الإيجاز لأن طول الكلام ينسي بعضه بعضاً.

وفي الحديث: إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة^(١) من فقه الرجل فأقصروا الخطبة وأطيلوا الصلاة وإن من البيان سحراً - رواه مسلم وأبو داود - وقد يُعد المتكلم مواضيع مختلفة في بعض المواقف، وهذا أشبه بالبيان والبلاغ منه بالخطابة كما في خطبته ﷺ في حجة الوداع وكخطب الساسة والزعماء في بيان أعمالهم ومنجزاتهم، أو عرض خطة سياستهم، وهذا بيان لاخطبة.

ثالثاً: الترتيب والتسويق: وفق ماسبقت الإشارة إليه في الكلام على التخطيط للخطبة فيرتب موضوعه ترتيباً منسقاً متوالياً لايقطعه باستطرادات تبعد السامع عن مجال الفكرة الأساسية، وتقطع استرساله في التفكير مع الموضوع الأساسي.

رابعاً: تكيف الأسلوب حسب اقتدار السامعين على الفهم: وكلما كان واضحاً مبسطاً كان أفضل، ويزيده وضوحاً إيراد الأمثلة والاستشهاد بالأدلة.

خامساً: التدليل وإيراد الأدلة: من أقوى عوامل الإقناع وسياقها يحتاج إلى ترتيب خاص وهو أن يوردها في مناسباتها وتدرجياً يتدرج بها تدرجاً تصاعدياً يبدأها بالضعيف ويختمها بالأقوى، كما في نصوص الخمر.

الأدلة في الخطابة على قسمين:

أ - أدلة منطقية: تقوم على ترتيب مقدمات تنتج قضايا مسلّمة عقلاً، وهذه الأدلة لا تكون إلا في مستوى علمي.

(١) أي إن ذلك مما يُعرف به فقه الرجل (النهاية لابن الأثير).

ب - أدلة خطائية ويمكن تقسيمها إلى عقلية وعاطفية:

فالعقلية: ما يكون من آية أو حديث: أو حكمة مسلمة أو كلام مشهور.
والعاطفية: ما كان مستتجاً من شعور الناس وإحساسهم مما تعارفوا عليه وهذا القسم يحسن في المجالات العامة ويكون تأثيره أقوى على العوام، لأنه يثير شعورهم، ويحرز إعجابهم ويسهل فهمه والتسليم به.

تنبيه: على الخطيب أن لا يسرف في الوعود الكبيرة، ولا يمتنع في مقام الزجر بإيراد النصوص التي هي الغاية في الوعيد، ولا يسمح لنفسه أن يورد كل ما سمع من أوصاف الهول والشدائد، رغبة في قمع النفوس، لأن الأذهان مهما كانت ستقيسها بما تستطيع تصويره، فقد يكون الإمعان في التهويل مدعاة للتشكك فيما يسمعون، وكما في الأثر «حدثوا الناس بما يعقلون أحبون أن يكذب الله ورسوله».

وعلى الخطيب إغتنام المناسبات المختلفة، والإبتعاد عن الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة والموضوعة والقصص الخرافية.

٣. الخاتمة

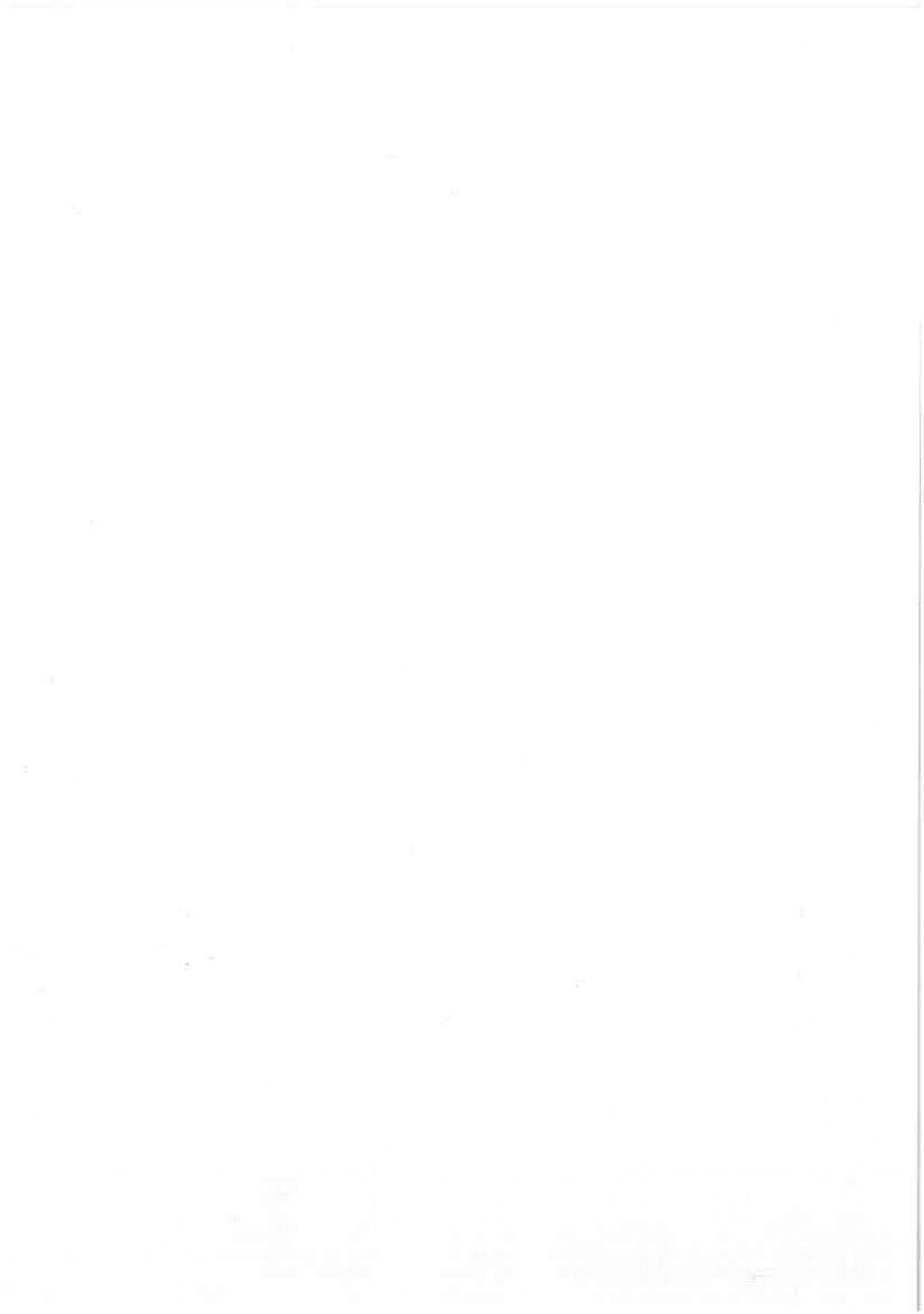
خاتمة الخطبة عبارة عن خلاصتها يوجز فيها ماضى ويستخلص فيها نتيجة ماقدم. وهي الطرف المقابل للمقدمة فكما أن المقدمة تنبه ذهن السامع للموضوع فالخاتمة تنهي أفكار السامع بخلاصة الموضوع كي تظل تلك الخلاصة ذات أثر في ذهنه يرن صداها في أذنه وتترأى معانيها في مخيلته وتتردد عباراتها على لسانه.

ومن هنا يجب ألا تكون محل شرح أو نقاش أو تدليل بل تكون محض خلاصة، لو أراد السامع أن يعرضها على غيره سهل عليه ذلك، ولو أراد أن يصدر حكمه بناه عليها واستخلصه منها، وتنوع الخاتمة بتنوع المواضيع كما تنوعت المقدمة تماماً.

أنواع الخاتمة:

تتنوع الخاتمة حسب تنوع الموضوع فتأتي ملائمة مستجمعة لأطرافه، يسترد الذهن شوارده ويستجمع الفكر فيها، فإن كان الموضوع توجيهياً، كانت الخاتمة خلاصة موجزة لأهم نقاط التوجيه، وإن كان الموضوع مثلاً تحذيراً عن تعاطي المسكرات فيجمع في الخاتمة عناوين عامة: فيذكر تحريمها والوعيد عليها ومفاسدها على الفرد وعلى الجماعة أديباً واقتصادياً، ويذيلها بمثل قوله: فعلينا أن نصون أنفسنا ومجتمعنا من هذه المفاسد، وبالله التوفيق.





رسول الله ﷺ

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، ولد في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٥٧١م، عام الفيل بعد وفاة أبيه عبد الله بشهرين وقد أرضعته حليلة السعدية وكفله جده عبد المطلب.

وتوفيت أمه وعمره ست سنوات ثم توفي جده عبد المطلب وعمره ثماني سنوات فكفله عمه أبو طالب.

تزوج من خديجة وعمره خمس وعشرون سنة، واشتغل راعياً للغنم، وذهب مرة بالتجارة إلى الشام، وقد عرف بالصدق والأمانة بين الناس.

نزل عليه الوحي وعمره أربعون سنة وبدأ بنشر الدعوة، وقد لاقى مقاومة شديدة من كفار قريش ثلاث عشر سنة، فهاجر إلى المدينة وبقي فيها عشر سنوات ونيف، وماتوفي إلا والجزيرة العربية قد دخلت في الإسلام عامة، وكانت وفاته في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١هـ وعمره ثلاث وستون سنة^(١).

ولقد كان رسول الله ﷺ أفصح الناس وأبلغ عصره.

حيث أوتي جوامع الكلم وذلك لأنه مكلف بتبليغ الرسالة عن ربه فتلزمه الفصاحة والبيان ليكون حديثه إلى الناس مسموعاً ومقبولاً.

(١) في كتب السيرة تفصيل كامل لحياته ﷺ

ولقد جاءت أحاديثه ﷺ على غاية ما تكون الفصاحة مستخدماً شتى أنواع البيان وقد حفظت هذه الأحاديث عنه، ولم يعرف أن نبياً أو إنساناً أثرت أقواله كلها سوى رسول الله.

ومن خطبه ﷺ الخطبة التالية:

خطب رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أيها الناس إن لكم معالِمَ فانتوها إلى معالِمكم، وإن لكم نهايةً فانتوها في نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين: بين عاجلٍ قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وبين آجلٍ قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه فليأخذ العبدُ من نفسه لنفسه، ومن ديناهُ لآخرته، ومن الشبية قبل الكبرة، ومن الحياة قبل الموت، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده مابعد الموت من مستعَب ولا بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنة أو النار»^(١).

دراسة النص:

بهذه الكلمات القليلة يبين رسول الله ﷺ أموراً هامة في حياة الإنسان، يبين له أن الإنسان قد وضع الله له منهاجاً عليه أن يسير عليه، وذلك لأن الموت لا بد منه، فليعمل الصالحات حتى لا يلقي ربه بنهاية تؤدي إلى النار،

ويبين أيضاً أن المؤمن لا يدري ماذا سيكون حساب الله له على أعماله الماضية، ولا يدري ماذا سيكون قضاء الله وقدره على أعماله المستقبلية، وهو بين ماضيه ومستقبله خائف على نفسه.

(١) البيان ج ٢ / ٣٠٢

ولقد أوتي الإنسان مفاتيح نجاته، فإذا أراد أن يلقي الله تعالى بنهاية حسنة فعليه أن يسارع إلى العمل الصالح ويدخر لنفسه، ويكرس دنياه لآخرته وينتهاز فرصة شبابه لفعل الخير وحياته قبل الموت.

ويبين رسول الله أن الإنسان في الآخرة سيكون في إحدى دارين، دار الجنة أو دار النار، كل ذلك يبينه رسول الله في هذه الخطبة القصيرة بأسلوب موجز بليغ وكلمات سهلة تنفذ إلى القلوب مباشرة، ليس فيها غريب أو معقد، فيها مخاطبة للعقل وللعواطف وفيها عظات وعبر حقاً إنه أوتي جوامع الكلم.

أول خطبة خطبها الرسول في مكة بعد البعثة

عندما أنزل الله عليه «وأُنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ».

جمع عليه الصلاة والسلام أهله وعشيرته وقام فيهم خطيباً فقال:

«إِنَّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ وَاللَّهُ لَوْ كَذَبْتَ النَّاسَ جَمِيعاً مَا كَذَبْتُكُمْ وَلَوْ غَرَرْتُ النَّاسَ جَمِيعاً مَا غَرَرْتُكُمْ وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لِرَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةٌ، وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةٌ وَاللَّهُ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ وَلَتَبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ وَلَتَحَاسِبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَتَجْزُونَ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَاناً، وَبِالسُّوءِ سُوءاً وَإِنَّهَا لَجَنَّةٌ أَبَدٌ أَوْ لِنَارٍ أَبَدٌ»^(١).

دراسة النص:

هذا النص يعتبر نهاية في الدقة والعمق، وكله دروس وقواعد، بدأها النبي ﷺ بإثارة معنى التصديق، ونبه العواطف الأخوية إلى الروابط الأهلية إن الرائد لا يكذب أهله، أي أنتم أهلي وعشيرتي، وفي هذا من إصاخة السمع، وانشراح الصدر لتحمل واستيعاب ماسيلقى عليه، ثم أعقبه بما

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٦١/٢

يدفع أي توهم أو يخالج النفوس من تهيم مع التدرج نحو الموضوع بتهيئة الجو إليه، «والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم»، فالإقسام بالله من الصادق الأمين بين يدي موضوع، يجعل السامع يتوقع أمراً هاماً، ويدفع احتمال الكذب منه عليهم خاصة ولو احتمل جدلاً حصوله على غيرهم، لبروز عنصر العواطف نحوهم، والروابط بهم، والحرص على ما ينفعهم وقد رأينا أن أسلوب التوثيق والتقوية مستمرة في عرض الموضوع حيث قال: والله الذي لا إله إلا هو، لما فيه من روعة في التقديم، وقوة في التركيب، حيث جاء الإقسام بما يريد أن يحملهم عليه من توحيد الله تعالى، وكأنه واثق من ذلك ومقدر ذلك منهم، فيقسم لهم مما ينازعونه فيه، أما المقسم عليه فقوله: إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة، وفي تخصيصهم بمهمته وتعميم الناس بعدهم جانبان مهمان:

الأول: تركيز المسؤولية فيهم وتحميلهم أعباءها ليأخذوها ويبلغوها للناس عامة في حياته ومن بعده أي لا أتباع بل دعاة.

الثاني: تنبيه العواطف الأهلية في تخصيصهم بها، لما فيها من مصالح عامة، وسعادة تامة، فأنتم أولى بالتقديم فيها على غيركم والناس عامة من بعدكم،

وبديهي أنهم سينكرون تلك الدعوة الجديدة بقلوبهم، وتثقل على آذانهم ويصعب قبلها وتفهمها على عقولهم فكان لابد من أدلة واضحة تساند الجوانب العاطفية، أدلة قاطعة، فقدم ما يسملون به من صدقه ودعمه بالعواطف الأهلية وانتقل إلى محسوس دائم. «والله لتموتن كما تنامون»، نعم إنهم لم ينكروا الموت لأنهم يعانونه كل يوم، وإنما جيء به لينبني عليه مابعده وهو المقصود له: «ولتبعثن كما تستيقظون»، فلئن عرفت الموت كالنوم بجامع فقد الإحساس، ثم علمتم اليقظة منه بعودة الإحساس إليكم بالاستيقاظ، فكذلك البعث بعد الموت فهو كالاستيقاظ من النوم.

فإذا آمنوا بالبعث، أو تصوروه أو ألزموا به جاءت النتيجة من هذا الإيمان، «ولتحاسبن بما تعملون» ولازم النتيجة كذلك «ولتجزون بالإحسان إسحاناً، وبالسوء سوءاً» ثم بيان هذا الإحسان أو ذاك السوء وأنهما بالجنة أو النار.

وهنا نجد الخطبة اشتملت على الخطوات التسلسلية الآتية:

أ - إثبات الرسالة ثم الإخبار بالبعث ومافيه، وهما مبدأ الدعوة وأساسها، فالإيمان برسالته من الله يستوجب لزوم الأخذ بكل ماجاءهم به عن الله.

ب - الإيمان بالبعث والجزاء، يبعث على فعل الإحسان، وتجنب الإساءة، وإثارة عوامل الرغبة والرغبة بالنسبة للجنة والنار.

وهذا القدر فيه الكفاية بالمقصود في بدء الدعوة وإليه المنتهى عند نهايتها.

الاستنتاج:

نستنتج من هذا النموذج النقاط الهامة التالية:

- ١ - أهمية الصدق للخطيب كعامل لنفي التهمة منه.
- ٢ - استيثاق الخطيب لنفسه كعامل لإلزام المستمعين.
- ٣ - تقديره للموقف وتكييفه موضوعه بحسبه كعامل لتقويته وتمكنه من أدائه.

٤ - ربط المقدمة بالموضوع بما يجانسه من المحسوس.

٥ - استخدام وسائل الإثارة، أهلية أو شخصية.

٦ - زيادة التوثيق بالقسم إن لزم الأمر.

٧ - التدرج من المسلّم به إلى المنازع فيه.

٨ - الانتقال من النتائج إلى لوازمها.

وكل هذه النقاط تعمل على نجاح الخطيب إذا راعاها أو أكثرها واهتم بها وهي كما نرى قواعد وأسس هامة للغاية.

« خطبته ﷺ يوم فتح مكة »

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ألا وقتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصى فيهما الدية مغلظة منها أربعون خلفه في بطونها أولادها يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم خلق من تراب ثم تلا «ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير.

يامعشر قريش ماترون أي فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١).

خطبة ﷺ في حجة الوداع

تمهيد:

في السنة العاشرة من الهجرة حج ﷺ بالناس حجة ودّع المسلمين فيها ولم يحج النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن فرض الله عليه الحج غير هذه الحجة.

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/٢٥٢ - تاريخ الطبري ٣/١٢ - سيرة ابن هشام ٢/٢٧٣

ويكيبيديا مناظرة

المناظرة (Debate) هو نوع مرتب أو رسمي من المناقشة وتختلف المناظرة عن المناقشة المنطقية التي تدور إثبات الحقيقة كما تختلف عن الجدل المعتمد على البلاغة والإقناع، فالمناظرة وإن اعتمد النقاش المنطقي وشيء من العاطفة فهو ينجح ويثبت نفسه عند متابعيه بحسب قوة السياق وخطة الحوار المتقنة ومرونتها.^[1]^[2]^[3]

وتهدف دراسة فن الحوار لجعل الشخص متمكناً من موقفه بسهولة. وقد لا يهدف الحوار لإثبات أمور سياسية أو اقتصادية بل لكل نوع من التناقض العام بغرض تنمية المهارات في المدارس والجامعات.

إذا نستطيع أن نسمي الحوار الهادف لاستخراج الحقيقة نقاشاً. والنقاش له آداب وضوابط من أهمها: النقاش مع المخالفين بخلق رفيع وتقبل أرائهم بسعة صدر دون انزعاج ممن يخالفنا الرأي، بل باحترام الرأي والرأي الآخر، فليس المقصود بالنقاش التغلب على الآخرين أو إفحامهم. بقدر ما هو سعي دؤوب وراء الحقيقة، فالغاية من النقاش اثبات صحة الفكرة وليس اثبات الذات

محتويات

أصل المناظرة

أصل النقاش

القواعد الشكلية للحوار

أهمية المناظرات

الحوار على الإنترنت

نماذج لبيانات حوارية

من آداب الحوار

سليبيات الحوار الأخلاقية

مراجع في قواعد الحوار

نماذج المناظرات

انظر أيضا

مراجع

وصلات خارجية

أصل المناظرة

المناظرة في اللغة مأخوذة من النظر أو من النظر بمعنى الإبصار أو الانتظار وفي الاصطلاح هي النظر بالبصيرة من الجانبين الممثل والمائل بغرض إظهار الصواب. وعلم المناظرة علم عربي أصيل يختص بدراسة الفعالية التناظرية الحوارية من خلال تقعيد قواعدها المنطقية وشروطها الأخلاقية بقصد تطوير أسلوب المباحثة التي تتم بين طرفين يسعىان إلى إصابة الحق في ميدان من ميادين المعرفة، حيث يواجه كل طرف الطرف الآخر بدعوى يدعيها ويسندها بجملة من الأدلة المناسبة، مواجهها في ذلك اعتراضات الخصم.

أصل النقاش

إن الجذر من ناقش يناقش مناقشة أو نقاشاً هو : نقش وقد ورد في أساس البلاغة ما يلي : يقال : ثوب منقوش ومنقش. ونقش في خاتمة كذا، وفيه نقش ونقوش. وانتقش الرجل على قصته: أمر أن ينقش عليه. تقول: اضطربت خاتماً وانتقشت على قصته. ونقش الشوكة وانتقشها: استخرجها. ونقش الشعر بالمناقش: نتفه بالمنتاف. وناقشه الحساب وفي الحساب. وعن عائشة بنت أبي بكر "من نوّش الحساب عذب". ومن المجاز : استخرجت منه حقي بالمناقش إذا تعبت في استخراجها. وانتقش منه حقه وإذا تخير الرجل رجلاً لنفسه قالوا: جاد ما انتقشه لنفسه. ونقش الرحي: نقرها.

القواعد الشكلية للحوار

وتكون المناظرات أو الحوارات الرسمية ذات قواعد محددة تسمح بتوزيع الأوقات وتفاعل المتحاورين وتفاعل الجمهور أحياناً، فمثلاً في سلسلة حوارية طبعتها دار الفكر "حوارات لقرن جديد" يكتب كلا المتحاورين بحثاً عن موضوع بعدد صفحات معين ثم يعطي البحث للمحاور الآخر ويطلب منه كتابة رد بعدد صفحات أقل وتنتشر النصوص الأربعة، أما في برنامج مناظرات الدوحة التي تجريه قناة BBC فعلى الأغلب يستدعى أربعة أشخاص وجمهور متنوع ويقوم مدير الحوار بتوزيع الوقت بين المتحاورين والجمهور حسب القضية المحددة ويسمح ببعض الاستثناءات اللازمة لإحكام الأفكار أو مناقشتها من الطرف الثاني، وفي أدبيات الحضارة العربية الإسلامية كتابات كثيرة عن أدب الحوار وتقنياته ومنها "الفنيلة" وهي استباق رأي الخصم بعبارة "فإن قلت كذا قلنا كذا".

اهمية المناظرات

- تعزيز الثقة بالنفس والإتزان وتقدير الذات لدى المتعلمين [4]
- اكتساب معارف متعددة والخوض في علوم شتى خارج نطاق المواد الدراسية للمتعلمين.
- توفير أنشطة تعزز الإنخراط الحيوي والفعال للمتعلمين.
- تعزيز القدرة على بناء وتنظيم الأفكار.
- تطوير مهارات التفكير العليا ومهارات التفكير النقدي.
- تنمية مهارات التحليل والبحث العلمي وتكوين الملاحظات لدى المتدربين.
- تطوير قدرة المتعلمين على الإتزان وتقييم الحجج البناء واستخدام المنطق والأدلة.
- تطوير القدرة على بناء وتقديم الخطب الفعالة.
- التشجيع على العمل الجماعي.
- توطيد مفهوم التركيز في الحديث والحوار والاستماع والاصغاء في الأذهان.

الحوار على الإنترنت

الحالة الأعم للحوار هي الحالة غير الرسمية ومنها التي نراها في المواقع الاجتماعية على الإنترنت والتي قد لا تتضبط بضابط وبعضها له ضوابط عامة ومثالها صفحات النقاش على ويكيبيديا، ومن الطبيعي أن تتحسن الحوارات مع نمو المعرفة والخبرة بممارسة الحوار. وقد يتم الحوار في بيئة الإنترنت على المدونات أو مواضيع المنتديات أو على صفحات المواقع الاجتماعية أو المجموعات البريدية وغيرها

نماذج لبيئات حوارية

ومن البيئات التي يشيع فيها الحوار المجالس النيابية والهيئات التشريعية ودور القضاء ومجالس الإدارات. إن الحكم على نتائج الحوار يقررها إما تصويت الجمهور كما في برنامج الوسطية للداعية الإسلامي والمدرّب القيادي الكويتي طارق السويّدان أو مناظرات الدوحة لمحطة بي بي سي، أو يقررها الحكام بشكل يشبه ما يتم في دور القضاء بعد ترفع كل طرف بحجته، أو بمزيج من الاثنين كما في القضاء المعتمد على المحلفين. والسبب الكامن لمشاركة الجمهور في تقرير النتيجة هو بدهية أن الحقائق تعتمد على إجماع العقلاء والخبراء، وتشيع المناظرات العامة كتقليد عام في ممارسات الانتخابات في بعض البلدان.

من آداب الحوار

- الابتعاد عن التعميم فاستعمال عبارات عمومية تسمح بترك الباب مفتوحاً للاستثناءات ولا تترك مجالاً لتداول الكلام والأفكار؛ ويمكن أن نترك كلمة "مطلقاً"، و "دوماً"، واستعمال كلمة "بعض" بدل كلمة "كثير"، وكلمة "أحياناً" بدل كلمة "دوماً" استعمال عبارات أقل مجابية "كثير منهم" فهي أفضل من "معظمهم".
- الابتعاد عن الأفراد والشخصنة والتركيز على الفكرة والموضوع.
- لا يجوز في أدب الحوار أن يقال للآخر "أنت مخطئ" بشكل مباشر، ومن الممكن القول "فكرتك غير صحيحة أو غير دقيقة"، وكقاعدة عامة الحوار يجب أن يدور حول الأفكار والوقائع وليس حول الأشخاص، فالهجوم والانتقاد كذلك على الفكرة وليس الشخص وكذلك الدفاع عن الفكرة وليس الشخص.
- لا ينعج الحوار حول الأمور الثابتة التي يصعب دحضها وينبغي تجنب المبالغات في الأمور المؤكدة أيضاً.
- توثيق المصادر والأرقام والتواريخ.
- التفريق بين الحجة والرأي، إن كان ما يطرحه المحاور مجرد رأي فعليه التنبيه لذلك والاعتراف به لو تعرض للسؤال وإلا أضعف موقفه، ولا يجوز في أدب الحوار أن يلبس رأيه لبوس الحجة أو الحقيقة.
- كسب القلوب والمواقف قد يكون أهم من إثبات الفكرة، ولذلك يكون استعمال العبارات اللطيفة والمحبة عند طرح ما يخالف به الآخرين وهذا له دوره عندما يوجد جمهور للحوار كما في مناظرات الرئاسة الأمريكية التي يهتم فيها المتناظران بكسب المستمعين وليس اقناع الخصم.
- اكتساب النقاط والمواقف الإيجابية والمشاركة والتأكيد عليها
- التزام الواقعية والحكمة لأنه لا حاجة لإثبات كل نقطة ليكون الحوار ناجحاً، فالحرب قد ينتصر فيها من لم ينتصر في كل معاركها.
- التسليم للخصم أثناء الحوار ببعض النقاط لصالحه أمر جيد ولا يؤثر على النتيجة العامة وهو أكثر حضارية وأقل استثارة للعداوات.
- أهم قاعدة أن نتذكر أن الحوار ليس مشاجرة، ولذلك عندما تكون اللهجة أو انتقاء الكلمات تشي بالغضب والاحتقار فلنتجنبها؛ وفي القرآن الكريم "قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن"، والأحسن شيء أرقى من الحسن
- تحديد مجال الحوار فقد نختلف مع الآخر في أكثر من مجال؛ من سياسي وديني وثقافي، فتحديد المجال يقلل من مدة الحوار ومن تشعبه ويرجح سهولة الوصول لثماره، وقد يكون الخلاف حول إثبات أمور هل هي موجودة أم لا، وبالمقابل قد يكون هو حول تفسيرها وتأويلها ولكل من الحالتين أسلوبها وأدلتها فالأول إثبات مصادر والثاني براهين استنتاجية. [1]

سلبيات الحوار الأخلاقية

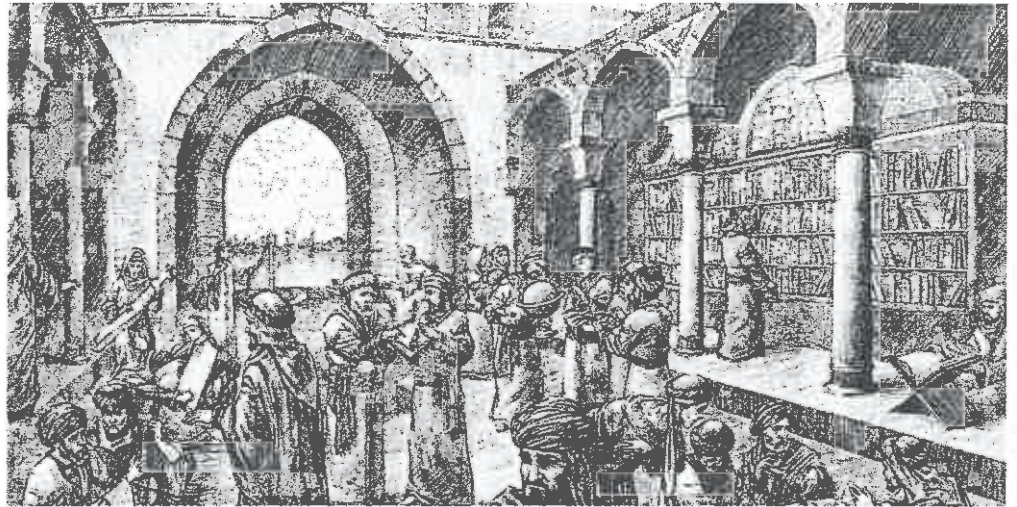
رغم أن الحوار وسيلة حضارية لحل المشكلات وتوضيح الأفكار؛ فإنه بحسب طبيعة الجدل المكتنفة فيه قد يوقع المتحاورين في سلبيات وتزيد بعد الموقف بينهما بدل تقريبه وقد رصد مؤلف كتاب إحياء علوم الدين هذه السلبيات الأخلاقية (كتاب صدر في القرن العاشر) وأكد أن المناظرة لغاية إفحام الخصم وإظهار الأفضلية واستمالة الجماهير من أسوأ التوجهات الأخلاقية السلبية عند الإنسان وسوف نثمر عنده مما يلي:

- الحسد؛ لطبيعة المناظرة التي تكون إما غالب أو مغلوب والناس تمدح كلام واحد منهما.
- التكبر؛ إذ غاية كثير من المتحاورين إظهار الرفعة على زملاءهم.
- الحقد؛ وينشأ من استحسان الناس لكلام الخصم أو عدم اصغائهم إلى كلامه.
- الغيبة؛ فمن عادة الناس إعادة كلام خصمه وسقطاته مراراً.
- الكذب وشتم من لا يقف في صفه.
- امتداح النفس؛ أثناء المناظرة وبعدها.
- تتبع نقائص الآخرين؛ وبعض المحاورين يجهز قبل المناظرة من أسرار خصمه ما يحرجه وهذا يحصل في بعض الحوارات على الفضائيات.
- الفرح لمصاب الخصم والغم لسروره؛
- النفاق؛ فمن العادة إبداء الظرف والمصرة للقاء الخصم ومصافحته والثناء عليه مع علم الطرفين بأن هذا مظهر كاذب.
- الاستكبار عن قبول الحق والحرص على المماراة حتى تصبح المماراة والجدل عادة طبيعية عند المحاور فيقوم لمعارضة أي كلام يسمعه.
- الرياء وطلب رضا الجمهور إذ يغلب على المناظرين طلب الثناء من الناس ولو على حساب الحقيقة.
- قد يتطور الحوار إلى مشاجرة؛ وهذا للأسف يحدث في بعض البرلمانات والبرامج المشهورة.

فن المناظرات: الوجه الآخر للخلافات التي عرفها تاريخ العرب

مصطفى سليم 01.07.2017

6 د. 22 مقالة



"اجتمع متحاوران، فقال أحدهما: 'هل لك في المناظرة؟' فقال: على شرائط"، ثم عددها:

"ألا تغضب، ولا تعجب، ولا تشغب، ولا تحكم، ولا تقبل على غيري وأنا أكلمك، ولا تجعل الدعوى دليلاً، ولا تجوز لنفسك تأويل آية على مذهبك إلا جوّزت لي تأويل مثلها على مذهبي، وعلى أن تؤثر التصادق، وتنقاد للتعارف، وعلى أن كلاً منا يبني مناظرته على أن الحق ضالته، والرشد غايته".

هذه القصة من كتاب محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء للأصفهاني، تعرض آداب المحاورّة الفكرية، أو المناظرات التي هدّب العرب شروطها وقوانينها.

المناظرات فنٌ أدرك العالم المعاصر قيمة الحوار فيه، لإرساء مفهوم التعددية واحترام الآخر.

ولعل أشهر مناظرات العصر الحالي هي المناظرات السياسية، فمن الأمثلة التي كان لها دوي وحظيت بمتابعة العالم تلك التي جرت بين مرشحي الانتخابات الفرنسية، والأمريكية قبلها، وهي على فرادتها، تذكر إلى حدّ كبير بالمناظرات التي أحاطت مفاهيم الحكم في التاريخ الإسلامي.

يروى الطبري أنه في عام 17 هـ، خرج عمر بن الخطاب إلى أرض الشام، وكان الوباء شائعاً بها آنذاك، وكان من الحكمة أن ينسحب الجنود؛ لئلا يُلْقُوا بأنفسهم في جحيم الوباء، وبالفعل اقترح الخليفة رجوع الجنود.

وعارض بعض المهاجرين الأولين ومهاجري الأنصار مذهبهم، حيث قيل: "خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده، ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك"، بينما أيدى مهاجرو الفتح قائلين: "ارجع بالناس فإنه بلاء وفناء".

يظهر على ساحة المناظرة القدريّة أبو عبيدة الجراح ليناظر عمر بن الخطاب بعد قرار الرجوع، حيث نهض وقال: "أفراؤ من قدر الله!" وكادت الكلمة تشق الصفوف، فلم يكن يعرف المسلمون بعد مثل هذه المسائل.

احتوى عمر الخلاف وقال: "فراؤ من قدر الله إلى قدر الله"، حسبما أورد الطبري في الجزء الرابع من تاريخ الرسل والملوك. وانتهت المناظرة إثر الحجة التي ألزم بها عمر أبا عبيدة.

المسائل القدريّة التي أثّرت في هذه الحقبة بعفوية، صارت في القرنين الثاني والثالث الهجري مذهباً فكرياً له معتنقوه، استثمره عدد من خلفاء بني أمية وبني العباس لتثبيت عروشهم بطريقة ثيوقراطية، وكانهم ظل الله على الأرض.

الشعبوية والقدريّة والخلافة، أشهر مواضيع المناظرات

سجلت المناظرة مسيرة الثقافة الإسلامية في شتى المجالات، إذ رصدت كثيراً من الظواهر الاجتماعية التي اتصف بها المجتمع.

تناثرت بذور المناظرة في أرض الثقافة العربية زمن الجاهلية، وأغناها تفاعل تأثيرات ثقافية متنوعة مع الموروث الثقافي الإسلامي، بطوائفه وبيئاته الفكرية.

ومع تطاحن القضايا الإشكالية تطور جنس أدبي له خصوصيته عبر مراحل تكوينه المعرفية.

في العصر الجاهلي، كان في مقدمتها مسألة الأحساب والأنساب، ونجد آثارها في الشعر الاحتجاجي، وما دار من جدل شعري في أسواق العرب المتشعبة والممتدة بامتداد جزيرتهم.

يرصد ابن هشام في السيرة النبوية أن البعثة غدت حديث الصباح والمساء بين العرب، فسكنت كثيراً من مناظراتهم شعراً ونثراً، ومن أشهرها نجد مناظرات النبي مع قومه ومع عتبة بن أبي ربيعة ومع اليهود ومناظرة أبي سفيان بن حرب وهرقل ملك الروم.

ونجد أبطال الأخيرة (المناظرة الشعرية) يتمثلون في ثالوث شعراء النبي؛ حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة ومناظراتهم مع أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزبيري وضرار بن الخطاب الفهري وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، ولم يكن لهم سابق عهد بالشعر ولكن الأحداث استولدت شاعريتهم.

وظّف فنّ المناظرات عند العرب أدوات الحوار والاستفهام والحكاية والاقتباس

بعيداً عن التسليم أو أحادية الرأي، اعتمد العرب البلاغة والحوار وأشكال النقاش الفكري

بعد موت النبي يرصد أبو علي السكوني في عيون المناظرات، كيف تناظر الصحابة في العديد من المسائل، بينها ارتياحهم في موت النبي، وموضع دفنه، وجمع القرآن، وفي الإمامة الأولى حيث اجتماع السّقيفة.

وثمة إرهاصات للمناظرات القدرية وجدت في ثنايا هذه الحقبة مروراً بمناظرات الإمامة الثانية بين علي ومعاوية إثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان، انتهاء بمناظرات فتنة التحكيم، لنقف إزاء مناظرات الخوارج وقد اشتد عودها وصارت فرقة لها مبادئها المذهبية التي كثيراً ما تناظرت فيها ليل نهار زمن بني أمية.

تنوعت أوجه القضايا التي أثارت خلافات زمن بني أمية، فسياسياً تنازل الحسن بن علي لمعاوية عن أمر الخلافة حقناً لدماء المسلمين، وعلى إثر هذا انهالت المناظرات على معاوية من كل جانب.

وكان محورها تقييم المواقف السياسية بينه وبين علي، وكان أبطالها رجالاً ونساءً، بحسب ما ورد في موسوعة المناظرات لسيد صديق عبد الفتاح.

لم يختلف الأمر كثيراً على المستوى العقدي، ولم يكن مستغرباً على أرض كأرض العراق التي تشبعت بالمذاهب والمعتقدات والملل والنحل، أن تتدافع مواقف مذاهبها وفرقها فنجد المرجئة والقدرية والجبرية والمعتزلة والخوارج والشيعية يتناظرون في أفكارهم ومبادئهم.

وفي القرن الثالث الهجري زمن العباسيين، انعكس في المناظرات النضج الفكري والعقلي واللغوي بأحداثه السياسية المتشعبة.

فانشطروا الهاشميون إلى عباسيين وعلويين، وتَنَصَّلَ العباسيون من الحق العلوي في الخلافة رغم أن البيعة والثورة دارت باسم البيت العلوي واتخذوا "الرضا من آل البيت" شعاراً لهم، وكان ذلك مادة لمناظرات مستمرة.

نقائض جرير والفرزدق

خلقت الحياة الأدبية فناً عبقرياً، عرف بفنّ النقائض وهو فنّ المناظرة الأدبية، بحسب توصيف الدكتور شوقي ضيف في كتابه التطور والتجديد في الشعر العربي.

كما أن النقائض من أغراض الشعر العربي، وهي من أغراضه القديمة، وهي من أغراضه الحديثة.

من أدب الجدل والمناظرة

الدكتور محمد ولد سيدي عبدالقادر

مقالات متعلقة

تاريخ الإضافة: 23/2/2010 ميلادي - 9/3/1431 هجري
زيارة: 42844

من أدب الجدل والمناظرة

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجِزْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سبا: 24 - 27].

إنَّ الهدف من الجدل والمناظرة هو مخاطبة العقول لتدبر أمر ما؛ لتهتدي فيه إلى الصواب، وقضية الألوهية من القضايا الكبرى التي جادل فيها المشركون، ومع ذلك فإنَّ القرآن الكريم أرشد المسلمين إلى الأخذ فيها بأسباب الإقناع والمناظرة، والمجادلة بالتي هي أحسن؛ لأنَّ الهدف هو إقناع المحاور؛ لعله يهتدي إلى الصواب وفق آداب وضوابط ينبغي مراعاتها.

ومن تلكم الآداب أو الضوابط التي أرشد إليها هذا النص الكريم:

• الانطلاق من نقاط الاتفاق؛ فإنَّ ذلك أدعى للاستماع؛ لما يُشعر به من الاشتراك، وهو تضيق للاختلاف، وهوَّة الاختلاف كلما اتَّسعت، صعب الوصول للاتفاق، ألا ترى المؤتمرات الحوارية تعقد، فيكون من النتائج أحياناً الوصول إلى تقارب في وجهات النظر، وإن لم يحصل اتفاق؟ فكيف بالانطلاق من وحدة اتفاق وجهات النظر؟ ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴾ [سبا: 24]؟! إنَّ كَوْن الرازق هو الله أمر لا يُجادل فيه المحاورون، وقد سجَّل عليهم القرآن الاعتراف به؛ كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ [يونس: 31]، ولما كان المخاطب موقراً بهذا الأمر، لم يكن الهدف من الاستفهام أن يُجيب، بل الهدف أن يُعرَف أن المحاور يسلم بهذا الأمر كذلك، وهو مما يتفق فيه مع الخصم، فأمر بالتصريح به؛ ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾.

• الابتعاد عن الجزم بصواب رأيك وخطأ رأي خصمك، وذلك والله غاية الإنصاف، فلا تقل لخصمك: استمع لأبني لك صوابي وخطأك، بل قل له: أخذنا على صواب، والآخر على خطأ، فتعال بنا نتحاور؛ لنعرف أيُّنا المصيب فنسلك سبيله؛ ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبا: 24]، فنحن وأنتم أخذنا على هدى والآخر في ضلال مبين، فأينا المهتدي، وأيُّنا الضال؟

وقد تمثَّل الإمام الشافعي رحمه الله هذا الأدب الرفيع، فكان يقول: "رأيي صوابٌ يحتمل الخطأ، ورأي خصمي خطأٌ يحتمل الصواب، وما ناظرْتُ أحداً إلا أحببْتُ أن يكون الصواب على لساني".

إنَّ الهدف من الحوار هو الوصول إلى الحق، لا الانتصار للنفس وشهوة الظهور والغلبة؛ فإنَّ الغلبة في قراع العقول للأقوى حجة وبرهاناً.

• عدم تجريم الخصم ووصف مذهبه بالبطلان، وإن اعتقدت جرمة وبطلان مذهب؛ لأنَّ الهدف إقناعه، لا الحكم على مذهب، بل يجب التنزُّل معه؛ لاحتمال أن تكون أنت المبطَّل وهو المجوِّ، فإنَّ ذلك يسبِّ سخيمة صدره، ويفتح ذهنه وقريحته للاستدلال لمذهبه والاستماع لأدلتك، وإذا جهد في نصر مذهب، وإبطال مذهبك فلم يفلح، لم يكن أمامه إلا الإذعان والتسليم لك إن ظهرت حُجَّتُك على حُجَّتِهِ، وذلك غاية ما ترجو؛ ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبا: 25]، فوصف مذهبنا بالجُرم تنزُّلاً، ومذهب الخصم بالعَمَل؛ مما يُشعر بأنه يحتاج إلى مناقشة للحكم عليه بوصف مناسب جرماً كان أم هدى، ووصفه بالجُرم أو الهدى متروك لنتيجة المِجادلة والمُحاورَة، لا مسلمة يُبتدأ بها.

• إشعار الخصم بأهمية موضوع المُحاورَة وخطره، وأنَّه من المواضع المهمة، وليس أمراً لا عمل تحته، بل هو عمل له ما بعده، ويتحمَّل صاحبه مسؤولية قراره، فهو الهدى أو الضلال، والصالح أو الإجرام، وكلُّ سيحاسب على قناعاته والعمل بمقتضاها؛ ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: 24 - 26].

• فسح المجال للمُحاور والمُجادل ليقول كلُّ ما عنده، والاستماع له بكلِّ هدوء وحُسن إِنْصَات، ففي ذلك الإنصاف له، ولعلَّه أن يأتي بما يُقنع إن كان مذهب هو الصواب، أو لعلَّك تقنع منه على مَكَمَّن الشبهة، فتضع يدك على موضع الداء، فتستخرجه من أقرب وجه، فإنَّ المُناظر الذي يحرص على الإقناع، كالطبيب يفسح المجال للمريض ليتكلم عن حالته بكل تفاصيلها؛ لعلَّه يصل إلى مكن الداء وموضعه وتاريخه، ولذلك أثره في التشخيص والعلاج، ولو لم يكن فيه إلا إقناع المريض بأنَّ الطبيب قد عرف حالته، لكان كافياً، وإن عرف الطبيب حالته من غير طريق حديثه عنها، فإن نفس المريض تكون أكثر راحة كلما تحدث عن مرضه بكل تفاصيله، والطبيب الحاذق يدرك ذلك، ويقدر مكانته وأثره في نفسية المريض، فرسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم لم يكن يشكُّ في أنه المهتدي، وأنَّ عبدة الأوثان هم الضالون، ولم يكن يشكُّ في أنَّ الجُرم وصفت لمن عبَد مع الله غيره، لكنه التنزُّل مع الخصم؛ ليسلس قياده، ومن ثم طلب منهم الحديث عن مذهبهم بكل ما أوتوا من حجة؛ ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ [سبا: 27]، أروني بكل ما أوتيتم من جدل وحُسن تقرير، فإنِّي مُصنِّع لحججكم، فإن عجزتم فتعالوا إلى لازم ما اعترفت به وإياكم من أفراد الله بالرزق والرُبوبية والقدرة المطلقة، فليكن هو المعبود وحده، فليس من الإنصاف أن يَرْزُق وَيَخْلُق وَيُنْعِم وَيَكُون القادر قدرة مطلقة، ويُعبَد غيره، بل هو المعبود لإحسانه وإنعامه وجلاله وكماله، وفي التعبير بالإلحاق - ﴿أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ - ما يدل على أنَّ الألوهية وصفت للأصنام لا تستحقه لذاتها، بل هو ادِّعاء لم تُقيموا عليه برهاناً، والأسماء لا تُغيِّر الحقائق، فالخمر خمر ولو سميت لبناً.

• الاهتمام بالمُحفِّزات الذهنية، فأسلوب الاستثارة والتحفيز الذهني من شأنه أن يُخرج ما عند المُحاور من حجج وبراهين، ومن أساليب التحفيز الذهني الاستفهام، وقد جاء في هذا المقطع على وجازته في موضعين؛ ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سبا: 24]، ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ [سبا: 27].

• الوصول إلى نتيجة أنَّ الهدف من المُحاورَة والمُجادلة والمناظرة إنَّما هو الوصول إلى نتيجة، وليس الحوار هدفاً لذاته، فما لم تكن للحوار نتيجة، فهو مضیعة للوقت، ومُجلبة للتنافر والتدابير والفرقة، والنتيجة هنا: بطلان الشُّرك، وتقدير الألوهية؛ ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ [سبا: 27]، فلم يُجيبوا، فلم يبقَ إلا أن يقتنعوا، أو يسجل عليهم الاعتراف بالعجز، فكانت النتيجة: ﴿كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سبا: 27].



COLLEGE OF FINE ARTS
University of Babylon, Iraq
كلية الفنون الجميلة



سيتم إعادة تفضيلك الى نتائج موقع الشبكة الرئيسية

الرئيسية | القسم الأكاديمي | القسم الإعلامي | اللوحة الافتراضية | القسم الاخباري | نظام المحاضرات | قسم المعلومات

RSS Subscription

تحميل الملف

مناقشة الطلاب

المحاضرة كاملة

المقدمة

انت هنا الان : شبكة جامعة بابل > موقع الكلية > نظام التعليم الالكتروني > مشاهدة المحاضرة

أساليب الإلقاء المسرحي

Share

الكلية كلية الفنون الجميلة القسم قسم التربية الفنية المرحلة 2
استاذ المادة زيد ثامر عبد الكاظم آل كتاب 07:39:19 28/10/2014

أساليب الإلقاء المسرحي

يعتبر فن الإلقاء عاملاً مهماً على خشبة المسرح وهو جزء لا يتجزأ من فن التمثيل بل هو أحد أدواته الفنية ، فالهدف الرئيسي الذي يصبوإ إليه الممثل من خلال وسائله الفنية وخاصة الإلقاء هو أن يؤلف القناعة لدى الجمهور بأبعاد الشخصية التي يجسدها وبالأقوال والمشاعر التي تقدمها تلك الشخصية فالبيت مهمة الفنان أن يعرض مجرد الحياة الخارجية للشخصية التي يؤديها بل لابد أن يتلائم بين سجايا الإنسانية وبين حياة هذا الشخص الآخر ، وان يصب فيها كلها من روحه هو نفسه ، إن الهدف الأساسي الذي يهدف إليه فنانا هو خلق الحياة الداخلية للروح الإنسانية ، ثم التعبير عنها بصورة فنية. ويأتي تعبير الممثل بالإضافة إلى حركاته وإيماءاته (إلقائه) فإن فهم الكلام قبل إلقائه أمراً لابد منه لأن العنصرية تتم ضمن إطار الفن الدرامي فلا مناص للممثل من الإيمان بالكلام الذي سيلقيه على مسامع المتفرجين والذي يتضمن جملة من الأفكار والمشاعر ليس إيماءاً مجرداً بل إيماءاً صادقاً فيما يليقه من حوار بعد التعرف على أبعاد الشخصية الطبيعية والنفسية والاجتماعية وصفاتها بالسلوك والتصرفات وطريقة الكلام ، فعلى الممثل أن يتعرف على العناصر التي تجذب السامع وتثيره من أجل إبراز القيم الدرامية المختلفة. كلنا نستطيع أن ننقل أفكاره وأفكار غيره إلى السامعين أو المشاهدين بوسائل متعددة ، أما عن طريق الخطبة أو الإيضاح والقضاء أو الإشارة ، ولكن ليس باستطاعة كل منا أن يتقن فن الإلقاء ، بحيث يصل إلى هدفه من نقل أفكاره أو أفكار غيره بشكل واضح ومحدد ، ومن ثم التأثير على السامعين أو المشاهدين بحيث يتفاعلون مع هذه الأفكار ، فالإلقاء يعتبر الوسيلة الوحيدة والفعالة في مخاطبة الجماهير كونه يجسد الأفكار والأحاسيس والأهداف بشكل معين ، ولفن الإلقاء أربعة أساليب هي (أسلوب الإلقاء الخطابي ، أسلوب الإلقاء الشعري ، أسلوب الإلقاء القصصي ، أسلوب الإلقاء التمثيلي).

أسلوب الإلقاء الخطابي:

كان الإلقاء في هذا الأسلوب عن طريق الخطبة وهو الشائع في بادئ الأمر حيث كان للخطبة أصولها وقواعدها التي يجب على الخطيب أن يراعيها أثناء لقائه لخطبته ، ولذلك اشتهر العرب أيام الجاهلية بالخطبة حيث كان أكثر شعريهم يلقي على مسامع الناس بشكل خطبة وسط الأسواق ثم امتدت عبر العصور الإسلامية متأثرة في تلك الفترة بالأحوال السياسية التي كانت تصود المجتمع. فقد كانت الحاجة إلى الخطبة قائمة خصوصاً في الحياة الاجتماعية كفض لنزاعات التي كانت تحدث بين القبائل آنذاك بالإضافة إلى نشر الأفكار وتحريض الناس على أمراً معيناً ، فالدين الإسلامي اعتمد على الأسلوب الخطابي في نشر تعاليمه حتى وصل إلى باقي المجتمعات التي تنفتح إلى الكتابة وأصولها ، وهدور الزمن أصبحت الخطبة الأسلوب الأمثل لمخاطبة الناس في جميع الفترات ، فالخطيب كثيراً ما كان ينزل عليه الناس لتشجيعهم وشد أزهم في كثير من الأمور الحياتية لان الخطيب يعرف أكثر من غيره كيف يتمكن من إثارة الحماس في نفوس المجتمع. وللإلقاء الخطابي أنواع عديدة نذكر منها الأهم وهو الإلقاء الخطابي الديني والإلقاء الخطابي السياسي ، ويختلف أسلوب إلقائهما تبعاً للمادة المنقاة ، ويتحدد أسلوب الإلقاء الخطابي بنقاط ثلاثة وهي:

- (1) أن يتلائم الأسلوب مع الفكرة العامة للخطبة ، فإذا كانت حماسية احتجت إلى صوت قوي ، وتسارع في الأداء ، وإذا كانت دينية احتجت إلى صوت دافئ وسرعة بطيئة.
 - (2) أن يتلائم الأسلوب مع السامعين من حيث ثقافتهم وتقبلهم للموضوع المطروح في الخطبة ، فالأسلوب الذي نتعامل به مع عامة الناس ، غير ذلك الذي نتعامل به مع طبقة مثقفة منهم. حيث أن في هذه الحالة لا نحتاج إلى تبسيط الأسلوب وإلى إيراد تفاصيل لا ضرورة لها.
 - (3) ملائمة الأسلوب للخطيب نفسه: فيعرف الخطيب قدرته في التعبير ، ومدى قوة صوته ، وتمكنه من موضوعه الذي يعالجه ، وثقته بنفسه وإيمانه بما يقوله في الخطبة ، فضلاً عن قدرته في مجابهة المواقف الطارئة ، وقدرته اللغوية من حيث سلامة اللفظ وضبط أواخر الكلمات ضبطاً صحيحاً .
- ويعتمد الأسلوب الخطابي بالدرجة الأولى على إيصال المشاعر أكثر من اعتماده على نقل المعاني ، الأمر الذي يلزم الخطيب بدراسة العوامل النفسية التي تحرك نفوس الجمهور وطباعه ، وكلما كان شعور الجمهور موحداً ، سيطرت عليه روح الجماعة.

المادة المعروضة اعلاه هي مدخل الى المحاضرة المرفوعة بواسطة استاذ(ة) المادة . وقد تبدو لك غير متكاملة . حيث يضع استاذ المادة في بعض الاحيان فقط الجزء الاول من المحاضرة من اجل الاطلاع على ما ستقوم بتحميله لاحقا . في نظام التعليم الالكتروني نوفر هذه الخدمة لكي نبقيك على اطلاع حول محتوى الملف الذي ستقوم بتحميله .

University | News Centre | College | Library | Quality and Performance

© University of Babylon 2010-2011. All rights reserved.

Part of : UOB-IT Operations

Valid: XHTML Valid: CSS



